الفصل الثالث

نشاط الشعر والشعراء

١

تعرب الشام

كان بالشام قبل الفتح الإسلامى العربى لغات متعددة وعناصر جنسية مختلفة ، فقد كان بها ساميون هم سلالة الشعوب التى نزلتها قديما من أموريين وكنعانيين وفينيقيين وعبرانيين وآراميين ، وكان بها عناصر من شعوب البحر المتوسط فى مقدمتهم الإغريق نزلاؤها منذ فتحها الإسكندر المقدونى سنة ٣٣٣ قبل الميلاد وخلفته بها الدولة السلوقية الإغريقية لنحو قرنين ونصف . وكان بها سلالات رومية منذ احتلّ الرومان الشرط الأكبر منها فى أواسط القرن الأول قبل الميلاد ، وظلت اليونانية لعهدهم لغة الثقافة ، ودعم ذلك انقسام الإمبراطورية الرومانية إلى غربية عاصمتها روما وشرقية عاصمتها بيزنطة أو القسطنطينية وتبعتها الشام ، وتألق فيها كما مر بنا غير شاعر ومتفلسف اتخذوا الإغريقية لسانهم وأداتهم فى التعبير الوجدانى والفكرى .

وهيأ كل ذلك لأن تتعدد اللغات فى الشام قبل الفتح العربى الإسلامى ، وكان من أكثرها شيوعا اللغتان اليونانية والآرامية ، ولم نذكر حتى الآن اللغة العربية . مع أن عوامل كثيرة جعلتها تتغلغل فى الشام من قديم ، لامجواره للجزيرة العربية وموقعه شمالى الحجاز وغربى بادية السماوة فحسب ، بل لقيام ثلاث دول عربية على حدوده وحِفافه الشرقية والجنوبية طوال ثمانية قرون أو تزيد قبل الإسلام ، وهى دول الأنباط وتدمر والغساسنة . وسبق أن ألممنا بها فى فاتحة الفصل الأول ، ونبسط الحديث عنها الآن بعض البسط [1] . أما دولة الأنباط فقد ظهرت على صفحات

---

(١) انظر فى هذه الدول تاريخ العرب قبل الإسلام لجواد على فى مواضع مختلفة من أجزائه وتاريخ العرب مطول لفيليب حتى (الترجمة العربية) وكذلك كتابه « تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين » ٤١٦/١ ومابعدها ، وتاريخ الشعوب الإسلامية لبروكلمان (الترجمة العربية) ص ١٣ وما بعدها وتاريخ العرب لصالح أحمد العلى الجزء الأول وكتابنا العصر الجاهلى ص ٣٣ وما بعدها .

التاريخ منذ القرن الثالث قبل الميلاد ، متخذة بطرا عاصمة لها جنوبية . واستطاعت فى مطالع القرن الأول قبل الميلاد أن توسع حدودها شمالا حتى منطقة حوران وجبل الدروز ، متخذة بُصْرَى بالقرب من دمشق عاصمة لها شمالية . ويذكر المؤرخون أنه فى سنة ٨٥ قبل الميلاد احتل الملك الحارث الثانى النبطى دمشق وغوطتها الخصبة ، وبذلك بلغت هذه الدولة ذروة مجدها السياسى ، إذ كانت تضم شمالى الجزيرة العربية وشرق الأردن وجنوبى فلسطين وسوريا الجنوبية ، ولم يلبث الرومان أن قضوا عليها فى مطالع القرن الثانى للميلاد . والأنباط عرب كانوا يتكلمون العربية فى حياتهم اليومية ، فهم عرب أصلاء ، ولاريب فى أن أنحاء من الشام وخاصة تلك التى سيطروا عليها أخذت تتعرب وتنطق بالعربية لعهدهم . وقد أخذوا عن الآراميين أبجديتهم وكتبوا بها نقوشهم وكلماتها العربية ، ومضى خطهم يتطور فى بيئتهم وشمالى الحجاز حتى بعد زوال دولتهم ، إلى أن نشأ عنه الخط العربى الذى كُتب به القرآن الكريم والذى يتداوله العرب إلى اليوم .

والدولة العربية الثانية تَدْمُر أقامتها القبائل العربية الشمالية بعد سقوط دولة الأنباط داخل بادية السماوة شمالى الجزيرة العربية بين الشام والعراق ، متخذين منها مركزًا كبيرا للتجارة مع بلدان البحر المتوسط وبلدان فارس والهند والصين . وبلغت هذه الإمارة أوج مجدها فى منتصف القرن الثالث الميلادى لعهد أذينة الذى بسط سلطانه على الشام ، مما أتاح للقبائل العربية فى دولته التغلغل فى ديارها ، وكان عاملا فى تعرب بعض سكانها حينئذ ، غير أن الرومان لم يلبثوا أن قضوا على تلك الدولة فى عهد الزباء زوجة أذينة . وبذلك انكمش ثانية التأثير اللغوى العربى فى ديار الشام .

على أنه سرعان ما استعاد هذا التأثير فاعليته فى عهد الدولة العربية الثالثة : دولة الغَساسنة ، وقد أخذت فى الظهور مع سقوط تدمر ، ويرجع النسابون بالغساسنة إلى اليمن وأن قبيلتهم فارقته بعد خراب سَدِّ مَأْرب ، واستقرت فى شرق الأردن . وشقت – فيما بعد – طريقها شمالا إلى حوران ، واصطدمت فى تلك الأنحاء بقبيلة عربية تسمى الضجاعم تمت لها الغلبة عليها ، وكانت تتجول فى هذه المنطقة الواسعة مع إعلان ولائها للدولة البيزنطية . ويقول النسابون إن جدها الأعلى كان يسمى جَفْنة بن عمرو مُزَيْقياء ، ولذلك يسمى النسابون الغساسنة أحيانًا باسم آل جفنة . وقد اعتنقوا المسيحية منذ القرن الرابع للميلاد ، مما يدل على عمق صلتهم وامتزاجهم بأهل الشام المسيحيين . وتاريخ ملوكهم غامض ، وأهمهم الحارث بن جبلة (٥٢٨ – ٥٦٩ م .) وقد منحته الدولة البيزنطية لقب فيلارك أى شيخ القبائل وأميرها ، كما منحته لقب البطريق وهو أعظم

الألقاب فى الدولة البيزنطية بعد لقب الإمبراطور . وأهم من ذلك أنه زار بيزنطة واستطاع أن يقنع إمبراطورها وحواشيه بتعيين يعقوب البرادعى أسقفا على الكنيسة المونوفيستية السورية ، وكانت تخالف العقيدة الرسمية للكنيسة البيزنطية . ويقال إن يعقوب رسم مائة ألف كاهن ونَصَّب تسعة وثمانين أسقفا فى البلاد . ومعنى ذلك أن الحارث بن جبلة كان يعد أقوى سيد فى سوريا والشام ، ولذلك دلالته البعيدة فى نفوذ القبيلة بالشام وفى مدى ماحدث حينئذ من تعرب بعض الشاميين وخاصة من رجال الكنيسة اليعقوبية . وكان الغساسنة كثيرى الحركة والتنقل من بقعة إلى أخرى ، وتتردد على ألسنة مادحى ملوكهم من الشعراء ذكر جِلِّق وكانت منازل بالقرب من دمشق على نهر بَرَدى المشتهر ببساتينه ، وأشهر من جِلِّق الجابية وكانت على مسافة يوم من دمشق إلى الجنوب الشرق .

وإنما أطلنا فى بيان ذلك كله لندل على أن الشام كانت قد أخذت تستعرب منذ قرون عدة قبل الإسلام ، ولاريب فى أن الفتح الإسلامى العربى زاد هذا الاستعراب حدة وقوة ، وخاصة أن قبائل الغساسنة وقضاعة وغيرهما ممن كانوا اعتنقوا النصرانية نبذوا سريعا الدين المسيحى ودخلوا فى الدين الحنيف ، ودخله معهم كثيرون من أهل الشام لما رأوا فى شريعته السمحة من الإنصاف والمساواة بين الناس ومن العدل الذى لاتصلح حياة أمة بدونه . وكان حكامهم البيزنطيون قد أساءوا معاملتهم إلى أبعد حد وساموهم ضروبا من العذاب والخسف وأرهقوهم بالضرائب الفادحة إرهاقا لايطاق ، بينما رأوا حكامهم المسلمين الجدد يرفعون عنهم كل ظلم وكل ثقل فى الضرائب مسوِّين بين كل من يسلم منهم وبين الجند الفاتح فى جميع الحقوق ، غير مستأثرين لأنفسهم بشىء ، مهما يكن قليلا أو تافها . فلاعجب أن يدخلوا فى الدين الحنيف أفواجا .

وقد استوطن الشام كثيرٌ من الجند الفاتحين له ، وكانوا من قبائل مختلفة شمالية وجنوبية ، وظلت الجزيرة العربية ترفدهم بسيول طوال الحقب الأولى للحكم الأموى ، واستقرت منها عشائر وبطون فى بلدان الشام حتى بلدانه الداخلية مثل حمص وطرابلس وبيروت وقيسارية وغيرها من مدن سوريا ولبنان وفلسطين . وبذلك حدث مزج قوى بين العرب المهاجرين وبين أهل الشام لاعن طريق الإقامة والاستيطان فحسب بل أيضا عن طريق المصاهرة والاختلاط اليومى بين الأسر والناس ، مما دفع بقوة إلى استعراب الشام سريعا . وظل من أهم دوافعه دخول الأسر الشامية أو بعض أفرادها فى الإسلام ، إذ جزءٌ لايتجزأ منه تلاوة القرآن ، ولن يستطيع أحد أن يتلوه تلاوة سديدة دون تعلم لغته ، أو بعبارة أخرى دون استعرابه . وربما كان مما يؤكد كثرة من

اعتنقوا الإسلام بعد الفتح مباشرة الخبر الذى مربنا فى الفصل الماضى عن أبى الدرداء قاضى دمشق المتوفى سنة ٣٢ للهجرة أن عدد من كان يشرف عليهم يوميا فى تلاوة القرآن بمسجد دمشق ألف وستمائة ونيف ، وكان وراءهم آلاف مستعربون لايحتاجون إلى من يعلمهم تلاوة القرآن الكريم .

ونظن ظنا أن الاستعراب فى الشام أصبح أمنية أهلها جميعا : من أسلم منهم ومن ظل على دينه المسيحى لسببين مهمين : أولا لتفوق العربية على الآرامية التى كانت شائعة على الألسنة ، إذ لم يكن لها تراث أدبى كالعربية ، ولا كان لها جمالها فى الجرس وحسن الإيقاع ، وثانيا لأن الدولة الأموية اتخذت دمشق عاصمة لها واستعانت بكثير من أهلها المسيحيين فى الإدارة وشئون الخراج والمال ، فأكبَّ كثير من المسيحيين على العربية يحاولون أن يتعلموها وأن يتقنوا الأداء بها حديثا وكتابة . وينبغى أن لاننسى ما كان قد حدث من استعراب هذه العناصر المسيحية قبل الإسلام وخاصة بين التجار ورجال الكنيسة اليعقوبية .

وربما كان من أكبر الأدلة على ما كان قد حدث من استعراب كثيرين من أهل الشام الأصليين قبل الإسلام أننا نجد أسرة مسيحية مستعربة تعمل مع معاوية وخلفائه الأمويين فى إدارة الشئون المالية ، ونقصد أسرة سرجيوس (وفى بعض المصادر سرجون) ويُظن أنه كان حاكما لدمشق قبل الفتح العربى الإسلامى واتخذه معاوية مستشارا له فى الشئون المالية مع بقائه معتنقا لدينه المسيحى ، وكان حفيده يوحنا الدمشقى يشرف على الشئون المالية بدوره لعهد عبد الملك بن مروان ، ومازالت هذه الأسرة المسيحية تعاون الخلفاء فى شئون المال والخراج حتى أمر الوليد بن عبد الملك بتعريب الدواوين كما هو معروف .

ومن أكبر الأدلة أيضا على استعراب العناصر المسيحية أننا نجد نفرا منهم يعنى بترجمته ترجمة مبكرة لبعض العلوم اليونانية ، على نحو ماذكر صاحب الفهرست عن خالد بن يزيد بن معاوية من أنه تُرجمت له كتب الطب والنجوم والكيمياء [١] . ولاشك فى أن هؤلاء المترجمين كانوا مستعربين ، بل كانوا يحذقون العربية حتى استطاعوا أن ينقلوا منها لخالد بن يزيد مانقلوه من المعارف المتصلة بتلك العلوم . ويسمى ابن خلكان فى ترجمته لخالد أحد أولئك المترجمين وهو مريانوس الراهب الرومى الذى أخذ عنه خالد علم الكيمياء أوكما كانوا يسمونه علم الصنعة . ويقول ابن خلكان إن لخالد فيها ثلاث رسائل تضمنت إحداهن ماجرى له مع مريانوس الراهب المذكور وصورة تعلمه منه والرموز التى أشار إليها [٢] .

(١) الفهرست لابن النديم (طبعة القاهرة) ص ٣٣٨ (٢) انظر ترجمة خالد فى ابن خلكان ٢/٢٢٤

ولم نتحدث عن اليونانية التى كانت معروفة فى الشام قبل الإسلام ، وأكبر الظن أنها انحازت إلى الأديرة ، وقد رأينا آنفا أن خالد بن يزيد بن معاوية استعان فى علم الصنعة وماترجم إليه منه براهب رومى ، وأكبر الظن أن الرهبان فى دمشق ومدن الشام من أنطاكية إلى غزة كانوا قد أخذوا فى التعرب ليستطيعوا الحديث إلى مسيحيي الشام المستعربين ، ولعل فى كل ما تقدم ما يوضح العوامل الكثيرة التى دفعت إلى تعرب الكتلة الكبرى من أهل الشام مسلمين ومسيحيين .

٢

كثرة الشعراء

يلاحظ أن عرب الشام قبل الإسلام لم يكن لهم نشاط يذكر فى تاريخ الشعر العربى لاعند الغساسنة ولاعند غيرهم من القبائل الشامية ، حتى إذا كانت الفتوح وهاجر كثيرون من القبائل القيسية مثل عامر وسليم إلى فلسطين وسوريا أخذ الشعر ينشط فى الشام وأخذ الشعراء يتكاثرون وخاصة مع الأحداث الكبرى على نحو مايلقانا فى المعارك التى نشبت بعد وفاة يزيد بن معاوية وتولّى مروان بن الحكم للخلافة بين القبائل اليمنية وفى مقدمتها قبيلة كلب والقبائل القيسية منذ موقعة مرج راهط وغيرها من المواقع . ونلتقى عقب هذه المواقع بشاعرين كبيرين للشام هما عدى بن الرِّقاع العاملى اليمنى والطرماح الطائى اليمنى ، أما عدى بن الرقاع فشاعر عبد الملك بن مروان والخلفاء من بعده ، وله ترجمة فى كتابنا العصر الإسلامى بين شعراء بنى أمية ، وأما الطرماح فنشأ فى الشام ونزل الكوفة مع بعض جيوشها واستقر بها ، واعتنق فيها مذهب الصفرية من الخوارج ، وله ترجمة فى كتابنا المذكور بين شعراء الخوارج .

وكانت الشام طوال عصر بنى أمية تَغُصّ بشعراء الحجاز ونجد والعراق الوافدين على الخلفاء لمديحهم وأخذ نوالهم وعطائهم . ومانبغ شاعر واشتهر فى هذه البيئات إلا رحل إلى دمشق يمدح هذا الخليفة أوذاك ، والخلفاء يُغْدقون على الشعراء جوائزهم وصلاتهم على نحو ماهو معروف عن شعراء العراق : الفرزدق والأخطل وجرير وعبدالله بن الزُّبير وذى الرُّمَّة والعَجَّاج وابنه رُؤْبة . ومثلهم من شعراء الحجاز كُثيِّر والأحوص وابن قيس الرقيات . ومدحهم من شعراء نجد كثيرون فى مقدمتهم الراعى النُّمَيْرى . وكان الأمويون يعدُّونهم ألسنتهم ودعاتهم فى بيئاتهم ، فأجزلوا لهم فى العطاء ، وكانوا مايزالون غادين عليهم رائحين بقصائد طنانة يرويها الرواة فى كل مكان بالشام وغير الشام .

وليس ماقدمناه كل ما كان بالشام من نشاط الشعر والشعراء لعهد بنى أمية ، فقد شارك غير خليفة فى هذا النشاط ، إذ كان بينهم شعراء بارعون هم يزيد بن معاوية ويزيد بن عبد الملك وابنه الوليد ، واشتهر الوليد بأنه يعيش للهو والقصف وجلب المغنين والمغنيات من الحجاز وإقامة الحفلات لهم فى قصره ، وشعره يستغرقه الغزل والتغنى بالخمر حتى بعد خلافته ، مما أعدَّ بسرعة لسقوط الدولة الأموية ، وله ترجمة فى كتابنا العصر الإسلامى .

وتنتقل الخلافة فى العصر العباسى إلى بغداد ، ويظل للشام نشاطها فى الشعر ، وهو نشاط لايقف عند مجرد نظمه على طريقة الإسلاميين والجاهليين ، إذ نرى شعراءها يصدرون فى شعرهم عن النزعات التجديدية التى نُظم الشعر العربى على أضوائها فى صدر الدولة العباسية . ومن كبار شعرائها الذين لمعت أسماؤهم فى القرن الثانى الهجرى عبد الملك بن عبد الرحيم الحارثى معاصر الرشيد ، وكان من الفَلّجة « من أرض دمشق » ، وترجم له ابن المعتز فى كتابه « طبقات الشعراء » وأشاد بشعره إشادة رائعة . وممن كان يعاصره من الشعراء الشاميين العتّابى وكان يحتذى – كما يقول الجاحظ – حَذْوَبشار بن برد فى البديع وله ترجمة فى كتابنا العصر العباسى الأول . وعلى غِراره تلميذه منصور النمرى الشامى ، وله أيضا ترجمة فى كتابنا العصر العباسى الأول . وبالمثل فى هذا الكتاب ترجمة لشاعر شامى مهم عاش فى القرنين الثانى والثالث هو ديك الجن . فالشام لم تنشط فى الشعر طوال العصر العباسى الأول فحسب ، بل قدمت إليه أعلام من الشعراء النابهين شاركوا فى نهضته وازدهاره – بل أكثر من ذلك لقد تطورت بصور البديع الحسية التحديدية وأضافت إليها صورا جديدة من بديع وزخرف معنويين رائعين ، وبذلك استحدثت للشعر العربى مذهبا جديدا هو مذهب التصنيع أو التنميق الحسى والفكرى ، على نحو ماهو معروف عن أبى تمام أستاذ هذا المذهب الذى أعطاه صيغته النهائية ، وقد أوضحنا ذلك إيضاحا تاما فى كتابنا « الفن ومذاهبه فى الشعر العربى » . وتلاه تلميذه البحترى ، ولم يكن له ثقافته وتعمقه فى النفوذ إلى دقائق الأفكار ، ومع ذلك تمسك بالمذهب وبخاصة جوانب البديع الحسى مع تمسك شديد بمقومات الشعر العربى وتقاليده فى الصياغة ، وكان لايبارَى فى الضرب على قيثارة الشعر العربى واستخراج أروع النغم منها وأحلاه . وأكبَّت الأجيال التالية فى العالم العربى على دراسته ودراسة أستاذه متخذة منه نموذجا للتمسك بعمود الشعر العربى وصياغته ، كما اتخذت من أستاذه نموذجا للبديع الحسى والمعنوى الذى يرضى المتفلسفة والمتعمقين فى المعانى . وانقسم النقاد مع الشاعرين وفنهما إلى صفين متقابلين ، وكل ذلك حاولنا تصويره فى كتابنا « الفن ومذاهبه فى الشعر العربى » ولأبى تمام ترجمة

فى كتابنا « العصر العباسى الأول » وللبحترى ترجمة فى كتابنا « العصر العباسى الثانى » . ونشرف بعد البحترى على نهاية القرن الثالث ، ولانزال للعصر العباسى الثانى بقية زمنية ، وفيها يسطع نجم شاعر الطبيعة الحلبى الصَّنَوْبرى وله ترجمة فى كتاب هذا العصر .

ونمضى فى عصر الدول والإمارات ، وقد عُنى بالحديث عن شعراء القرن الرابع الهجرى ومطالع القرن الخامس الثعالبى فى يتيمته ، متحدثا عن الشعراء النابهين فى أقاليمه من أواسط آسيا إلى الأندلس . ويلاحظ فى فواتح كتابه أن كِفَّة الشعر العراق التى كانت تجعله يرجح على جميع الأقاليم العربية شاما وغير شام قد خفَّت وخلفتها كفة الشام ، إذ يستهل يتيمته بقوله : « الباب الأول من القسم الأول فى فضل شعراء الشام على شعراء سائر البلدان وذكر السبب فى ذلك ثم يقول : « لم يزل شعراء عرب الشام ومايقاربها أشعر من شعراء عرب العراق ومايجاورها فى الجاهلية والإسلام .. والسبب فى تبريز القوم قديما وحديثا على من سواهم فى الشعر قربهم من خطط العرب ولاسيما أهل الحجاز ، وبعدهم عن بلاد العجم ، وسلامة ألسنتهم من الفساد العارض لألسنة أهل العراق لمجاورتهم للفرس ونبط (فلاحى) العراق ومداخلتهم إياهم .. ورُزقوا ملوكا وأمراء من آل حمدان . . وهم بقية العرب ، والمشغوفون بالأدب والمشهورون بالمجد والكرم ، والجمع بين أدوات السيف والقلم ، وما منهم إلا أديب جواد يحب الشعر وينتقده ، ويثيب على الجيد منه فيُجذل ويفضل » . ولسنا نريد أن نناقش الثعالبى فى هذا الحكم ، فإنه — على مافيه من مبالغة — يدل على ماحدث بالشام مع مطالع عصر الدول والإمارات من نهضة شعرية حقيقية تنبىء عنها الأبواب التالية فى اليتيمة ، فقد جعل الثعالبى الباب الثانى لسيف الدولة الحمدانى أمير حلب وشمالىّ الشام وملح شعره وغزواته الحربية المظفرة على لسان شعرائه . وقصر الباب الثالث على أبى فراس الحمدانى الشاعر والفارس المشهور . وخص الباب الرابع بملح أشعار آل حمدان أمراء الشام وقضاتهم وكتابهم . وأفرد الباب الخامس للمتنبى شاعر سيف الدولة المبدع . وجعل الأبواب : السادس والسابع والثامن لبعض المادحين لسيف الدولة من شعراء الشام والعراق .

ومرَّ بنا كيف أن حلب فى زمن سيف الدولة (٣٣٣ — ٣٥٦ هـ) استحالت أكبر مركز علمى وفلسفى ولغوى ، إذ نزلها كثير من العلماء والمتفلسفة واللغويين من أمثال الفارابى وأبى على الفارسى وابن جنى غير من كان بها من الأطباء وعلماء الفلك . ولايهمنا الآن بيان ذلك إنما يهمنا أنها أصبحت مركز الشعر والشعراء فى تلك الحقب ، إذ لم يبق شاعر كبير فى الشام أو فى العراق أو فى إيران إلا أمَّها وأسبغ عليه سيف الدولة من نواله ، حتى ليقول الثعالبى إنه لم يجتمع قط بباب أحد

من الملوك – بعد الخلفاء – مااجتمع بباب سيف الدولة من شيوخ الشعر ، ونجوم الدهر ، منهم كُشاجم – ويقال إنه كان طبَّاخة – والخالديان – وكانا خازنى مكتبته – والسَّلامى والسَّرى الرفَّاء والوأواء الدمشقى والنامى المصيصى وابن نباتة السعدى والببَّغاء ، وكل هؤلاء كانو شعراء ، وترجم لهم الثعالبى ، ووراءهم كثيرون كانوا يفدون على سيف الدولة مادحين ثم يعودون بالعطاء إلى أوطانهم شاكرين مثنين .

ومضت الشام فى نهضتها الشعرية وظهر فيها أمثال عبد المحسن الصورى وأبى الرقعمق والواسانى وجميعهم ترجم لهم الثعالبى ، ويعنى الباخرزى فى دمية القصر بذكر طائفة من شعراء الشام خاصة من مدح منهم الوزير السلجوقى نظام الملك ، وترجم لأبى العلاء المعرى وابن سنان الخفاجى تلميذه ترجمة قصيرة . وبعض من ترجم له ألم به العماد الأصبهانى فى الخريدة . ولمْ يُعن أحد من أصحاب التراجم الشعرية بشعراء النصف الثانى من القرن الخامس ومطالع القرن السادس ، ومن أعلام الشعراء الشاميين فى تلك الحقبة ابن حيُّوس وله ديوان ضخم فى مجلدين .

ويعرض العماد الأصبهانى فى خريدة القصر تراجم مستفيضة لنحو مائة وثلاثين شاعرا جمهورهم من شعراء القرن السادس حتى زمن كتابته أو تأليفه للخريدة فى أوائل العقد الثامن من القرن ، وهم يشغلون ثلاثة أجزاء ، أولها خاص بشعراء دمشق والشعراء الأمراء من بنى أيوب ، ونراه فى مطلع هذا الجزء يشيد بشعر الشاميين ويرفعه درجات على شعر أهل العراق ، بالضبط كما صنع الثعالبى ، يقول : « شعر الشاميين أصح وزنًا ، وأسحُّ مُزنًا ، وأمتن صيغة ، وأحسن صبغة ، وأحكم صنعة ، وأسلم رقعة ، وأرفع نسجا ، وأنفع مزجا ، وأقوم معنى ، وأحكم مبنى » ويُشيد بطائفة من قدمائهم مثل البحترى وأبى تمام وطائفة من محدثيهم بعدهما مثل عبد المحسن الصورى وابن سنان الخفاجى وابن حيوس ، وكأنى به نسى أبا العلاء عامدا لشهرته الواسعة . ويترجم فى هذا الجزء لابن الخياط الدمشقى تلميذ ابن حيوس وديوانه مطبوع . وتلا العماد ذلك بجزء اشتمل على خمسة وأربعين شاعرا بينهم أهم من أنجبتهم الشام فى القرن السادس الهجرى من الشعراء أمثال الغزى وابن منير الطرابلسى والقيسرانى وعرقلة وديوانه مطبوع وفتيان الشاغورى وديوانه مثله مطبوع وابن قُسيم الحموى وأسامة بن منقذ وديوانه مطبوع . ويتبع ذلك جزء به نحو ثمانين شاعرا عرض فيه العماد بيوتا وشعراءها كبيت آل المعرى وبيت بنى الدويدة وبيت بنى الحُصَين ، ويذكر طائفة من شعراء حلب ربما كان أهمها حماد الخرَّاط . وكأن العماد لم يترك فى الشام لزمنه شاعرا كبيرا ولاصغيرا إلا ترجم له .

واهتمت كتب التاريخ والتراجم بشعراء الشام بعد زمن العماد فى أيام الأيوبيين والمماليك والعثمانيين ، وفى مقدمتها وفيات الأعيان لابن خلكان وفوات الوفيات لابن شاكر الكتبى والوافى بالوفيات للصفدى ومطالع البدور للغزولى والدرر الكامنة لابن حجر والضوء اللامع للسخاوى وريحانة الألبا للخفاجى ونفحة الريحانة للمحبى وسلك الدرر للمرادى . فكل هذه الكتب تحمل عشرات من شعراء الشام فى حقب وأزمنة مختلفة ، وكثير من نابيهم فى تلك الأزمنة والحقب أيام الأيوبيين ومن بعدهم لهم دواوين مطبوعة مثل ديوان ابن الساعاتى والصاحب شرف الدين الأنصارى وأبدمر المحيوى والشاب الظريف وأبيه عفيف الدين التلمسانى وابن الوردى وابن النقيب الدمشقى ، وتموج رفوف المكتبات فى العالمين العربى والغربى بدواوين كثيرة لشاميين لاتزال مخطوطة .

٣

شعر دورى – رباعيات – موشحات – بديعيات – تعقيدات

(١) الشعر الدورى

منذ ابتدع الشعراء فى العصر العباسى الأول الشعر المزدوج الذى يتكون من شطرين متقابلين ، وتتوالى فيه الشطور المتقابلة ، والشعراء يكثرون منه فى جميع الأقاليم الإسلامية ، وهيأ ذلك لظهور أنماط مختلفة من الشعر الدورى الذى تتكون فيه القصيدة من أدوار متعاقبة ، ويغلب أن يكون كل دور بيتين ، وتقل الأدوار وتكثر حسب رغبة الشاعر . وتفرَّع عن هذا النمط من قديم عند أبى نواس وأضرابه نمط المسمطات وعادة يتكون الدور فيه من أربعة شطور يليها شطر خامس تتحد قافيته فى كل الأدوار ، بينما تتنوع القوافى فى الشطور الأربعة السابقة له من دور إلى دور ، وكأن الشطر الخامس بقافيته المكررة ياقوتة فى عقد تلتقى عندها أسلاكه المختلفة ، وتسمى هذه القافية المكررة عمود القصيدة . وكلما تقدمنا فى العصر كثرت هذه المسمطات ، وهى قد تكون رباعية بمعنى أن قافية الشطر الرابع هى المكررة ، وقد تكون خماسية كما ذكرنا ، وقد تكون سباعية أو تساعية ، وممن عنى بالنظم فيها أسامة بن منقذ فى ديوانه منها أربعة مسمطات خماسية ، ومن قوله فى أحدها [١] :

---

(١) ديوان أسامة بن منقذ (طبع المطبعة الأميرية بالقاهرة) تحقيق الدكتور أحمد بدوى والدكتور حامد عبد المجيد ص ٤٠ .

كم رُضْتُ نفسىَ بالسلوان فامتنعتْ وكم أضاعوا مواثيقَ الهَوَى ورَعَتْ
ومانقمتُ عليهم غدرةً فصغتْ[١] ولا أضعتُ لهم عهدا ولا اطَّلعتْ
على ودائعهم فى صدرىَ التُّهَمُ

وقافية الشطر الأخير مكررة فى الشطر الخامس من كل دور ، وواضح أن المسمط خماسى الشطور ، وتلقانا أمثلة للمسمطات فى دواوين ابن الساعاتى والصاحب شرف الدين الأنصارى وأيدمر المحيوى زمن الأيوبيين ، ومضى الشعراء فى الحقب التالية يكثرون منها وخاصة صلاح الدين الصفدى ، ونظل نلتقى بها فى الحقب المتأخرة .

(ب) الرباعيات

معروف أن الرباعية أربعة شطور تؤلَّف ببتين ، وتتحد الشطور : الأول والثانى والرابع فى القافية وقد يتحد مع تلك الشطور الشطر الثالث فى القافية وقد يختلف . وللرباعية وزنان هما : « فَعْلن فعلن مستفعلن مستفعلن » و « فعلن متفاعلن فعولن فعلن » وقد أخذت تشيع على ألسنة الشعراء فى هذا العصر وخاصة منذ القرن السادس ، نجدها عند ابن قُسَيم الحموى المتوفى سنة ٥٤١ للهجرة وعند عرقلة المتوفى سنة ٥٦٧ وفى خاتمة ديوانه منها إثنتا عشرة رباعية ، منها قوله :

ويلاه على المهفهف الميَّاسِ ما أحسنه ولو بقلبٍ قاسِ
يهتزُّ كأنه قضيبُ الآسِ سكرانَ ولم يَذُقْ حميَّا الكاسِ

وذكر ابن خلكان أنه كان للعماد الأصبهانى ديوان صغير جميعه دُوبَيْتات أو رباعيات ، وطائفة فيها كانت بلسان نور الدين فى الحث على جهاد حملة الصليب وتمزيق جموعهم ، من مثل قوله[٢] :

لا راحةَ لى فى العيش إلا أغزو سيفى طربًا إلى الطُّلَى يهتزّ[٣]
فى ذلّ ذوى الكفر يكون العزُّ والقدرةُ فى غير جهادٍ عَجْزُ

---

(١) صغت : مالت
(٢) الروضتين فى أخبار الدولتين لأبى شامة (طبع مطبعة وادى النيل) ١/٢٠٧ .
(٣) الطل : جمع طلاة أو طلية : العنق أو صفحته .

وكان لفتيان الشاغورى المتوفى سنة ٦١٥ ديوان جميع مافيه دوبيتات ، رآه ابن خلكان وأنشد منه فى ترجمته قوله :

الوردُ بِوَجْنتيك زاهٍ زاهرْ والسِّحْرُ بمقلتيك وافٍ وافرْ
والعاشقُ فى هواك ساهٍ ساهرْ يرجو ويخاف فَهْوَ شاكٍ شاكرْ

ونظل نلتقى بالرباعيات فى دواوين الشعراء أيام المماليك بل أيضا أيام العثمانيين عند حسن البورينى وبهاء الدين العاملى وعبد الغنى النابلسى وغيرهم من الشعراء[١] وحين شاعت التورية بثها الشعراء فى رباعياتهم كقول على بن المظفر الوداعى الحلبى المتوفى سنة ٧١٦ متغزلا[٢] :

لما حُجب الكَرَى عن الآماقِ وانقاد مع العِدَا على العُشَّاقِ
ناديتُ وقد تزايدتْ أشواقى ياغُصْنُ رضيتُ منك بالأوراق

والتورية واضحة فى كلمة الأوراق ، إذْ لها معنيان قريب وهو أوراق الغصن وبعيد وهو أوراق الرسائل المتبادلة بينه وبين صاحبته ، وهو المراد .

(جـ) الموشحات

الشائع المعروف أن الموشحات من اختراع الأندلسيين وأنهم سبقوا إليها المشارقة ، ومعروف أنها تتألف من شطور تسمى قفلا وشطور تليها تسمى أداورا أو أغصانا ، ومن خَرْجةٍ يسمَّى بها القفل الأخير فى الموشحة . ومن ينعم النظر فيها يؤمن بأنها تطورت من أشكال المسمطات ، واستقلت بهذه الصورة ، ويبالغ المستشرقون الإسبان – خاصة – قائلين إنها فن أندلسى خالص تطور عن أغان رومانسية كانت معروفة فى القرنين الرابع والخامس للهجرة ، ولم يقدموا أغنية واحدة تشهد لذلك ، بينما يوجد لدينا شكل من أشكال المسمط نظمه ديك الجن الحمصى المتوفى سنة ٢٣٥ للهجرة نظن ظنا أنه الأب الحقيقى للموشحات الأندلسية إذ يجرى على هذا النمط[٣] :

قولى لطيفك يَثْنِى عن مضجعى عند المنامْ

---

(١) انظر مثلا ريحانة الألبا للخفاجى ٢١/١ ، ١٠٤/١ ٣٤٤

(٢) خزانة الأدب للحموى (طبع مطبعة بولاق) ص

(٣) خزانة الأدب للحموى ص ٩٧

عند الرُّقَادْ عند الهجوعْ عند الهجودْ عند الوَسَنْ
فعسى أنامُ فتنطفى نارٌ تأجَّجُ فى العظامْ
فى الفؤادْ فى الضلوعْ فى الكبودْ فى البَدَنْ

ويستمر المسمط الموشح على هذه الصورة، وواضح أنه نشأ من فكرة بسيطة هى تكرار قافية البيت بروىٍّ جديد . وكأنما وقع هذا المسمط الغريب أوقل هذا الموشح الفريد لمقدم بن معافى شاعر الأمير الأندلسى عبد الله بن محمد المروانى (٢٧٥ – ٣٠٠ هـ) فنظم على صورته بعض منظوماته وكُتب لهذه الصورة عنده أن تشيع بعده فى الأندلس باسم الموشحات على نحو ماأوضحنا ذلك مرارا فى كتاباتنا . وحملها إلى المشرق الأندلسيون المهاجرون إلى مصر والشام ووضع لها ابن سناء الملك قوانينها الموسيقية فى كتابه « دار الطراز » وبذلك فتح أبواب تلك الموشحات على مصاريعها للمشارقة كى ينظموا على غرارها منذ زمنه فى أواخر القرن السادس . وأيضا فإنه كان قد نزل الشام بعض الأندلسيين من ناظميها ، فكانوا من أسباب إشاعتها مثل عبد المنعم الجلياني الأندلسى الطبيب نزيل دمشق فى زمن صلاح الدين وظل بها إلى وفاته ، وله فيه مدحة سميت التحفة الجوهرية ، ويقول ابن أبى أصيبعة : له « ديوان غزل وتشبيب وموشحات ودُوبَيْتات » أو رباعيات . ونظل فى زمن الأيوبيين والمماليك نلتقى بوشاحين مختلفين . وللصلاح الصفدى المتوفى سنة ٧٦٤ كتاب فى الموشحات سماه : توشيع [١] التوشيح ذكر فيه إحدى وستين موشحة من عيون الموشحات الأندلسية والمصرية والعراقية والشامية ، وذكر موشحا طريفا لشمس الدين محمد بن على الدهان المتوفى سنة ٧٢١، ويقول ابن شاكر إنه كان يحترف صناعة الدهان وينظم الشعر الرقيق وكان على علم بالموسيقى والألحان، فكان ينظم الشعر ويلحنه ويغنى فيه المغنون[٢]، ويسوق نفس الموشح الذى ذكره الصفدى، ويستهله بقوله:

بأبى غُصْنٌ بانةٍ حملا بَدْرَ دُجًى بالكمال قد كملا أهَيْفْ
فريد حُسْنٍ ما ماس أو سفرا
إلا أغار القضيبَ والقمرا
يُبْدى لنا بابتسامه دررا

---

(١) حقق هذا الكتاب ألبير مطلق ونشره بدار الثقافة ببيروت.

(٢) راجع ترجمته فى فوات الوفيات ٤٩٢/٢ والوافى ٢٠٩/٤ وانظر عقود اللآل للنواجى ص ٧٧.

والموشح وافر الموسيقى واللحن والنغم. وذكر الصفدى بجانب هذا الموشح موشحا لجمال الدين يوسف الصوفى المتوفى سنة ٧٥٠، وهو يفيض بالعذوبة وجمال اللفظ والصور كقوله:

ساحرٌ بالدلالْ ساخرٌ بالصَّبِّ فائقٌ فى الكمالْ لائقٌ بالحبِّ

بِشَذَا المسك فاحْ ثغرُ هذا الغزالْ
باسمٌ عن أقاحْ كفريدِ اللآلْ
ردَّ نورَ الصباحْ كظلام الليالْ

وأنشد الصفدى لنفسه فى كتابه سبعًا وثلاثين موشحة، وكثير منها معارضات لموشحات مشهورة لأندلسيين وغير أندلسيين، وقلما يحلِّق إلى أفق الموشحات التى يعارضها، ويغلب التكلف على موشحاته، وفى أحيان قليلة يَسْلس فى بعض الموشحات وبعض المقاطع كقوله فى معارضة موشحة لابن اللبّانة الأندلسى:

بات بَدْرى وهْو معتنق أحتسى فاهُ وأرتشفُ
وبه أمسيت متَّحدا
بعد ماقد كنت منفردا
وغدا بدر السما كَمِدَا

وقد أنشد النواجى فى كتابه عقود اللآل تسع موشحات لابن حبيب الحلبى وموشحتين لابن حجة الحموى[1].

ويلقانا وشاحون مختلفون فى زمن العثمانيين على نحو مايذكر المحبى عن أبى بكر العمرى وأبى بكر العصفورى[2]. ولابن النقيب المتوفى سنة ١٠٨١ موشح استلهم فيه موشحا مشهورًا للسان الدين ابن الخطيب استهله بقوله[3]:

ياليالى السَّفْح من عهد الصِّبا ياسَقَى مغناكِ صوبُ الدِّيَمِ
كم تسرَّقتُ بها بين الرُّبَى خُلَسًا مَرَّتْ كطيفِ الحُلُمِ

(١) انظر فهرس عقود اللآل للنواجى
(٢) نفحة الريحانة للمحبى ١/٢٢، ٢٥٤
(٣) ديوان ابن النقيب نشر المجمع العلمى العربى بدمشق ص ٢٦٣

وتكثر الموشحات الصوفية عند عبد الغنى النابلسى كثرة مفرطة . ونقف قليلا عند وشّاحَيْن مهمين هما أيدمر المحيوى والمحّار الحلبى .

أيدمر المحيَوىّ[١]

لانعرف شيئًا عن نشأة هذا الشاعر ومرباه ، وكل مابأيدينا عنه أنه عتيق محيى الدين محمد بن محمد بن سعيد بن ندى وزير الجزيرة لسلاطينها من الأيوبيين ، وقد طبعت له دار الكتب المصرية مختارات من ديوانه ، وهو فيها يمدح الملك الكامل سلطان مصر مشيدًا بانتصاره على حملة الصليب فى موقعة دمياط سنة ٦١٨ . وكان يسكن دمشق ويزور مصر كثيرا وله مدائح فى الصالح نجم الدين أيوب حين كان يلى شئونها منذ سنة ٦٣٦ إلى سنة ٦٤٧ ويبدو أنه لم يعش بعد هذا التاريخ طويلا ، وله غزليات وأشعار طريفة فى الطبيعة ، وله – بجانب ذلك – موشحان فى المديح يستهلها بغزل بديع ، وقد عارض فى موشحه الأول ابن زهر فى موشح له مشهور ، ومن قوله فيه على نسقه .

هزَّ عِطْفَ الغصن من قامتهِ
مُطْلعا للشمس من طلعتهِ
ثم نادى البدرَ فى ليلته
أيها البدرُ تغيَّبْ وَيْحَكا ماحتياجُ الناس للبدر معى

وعذوبة موسيقاه واضحة فى هذا الموشح ، وكان يضيف إليه فى أحيان كثيرة محسنات البديع من طباق وجناس وتورية ، ولاتفارقه هذه العذوبة حتى حين يجنح إلى التكلف على نحو مانلقاه فى موشحه الثانى وفيه يقول :

بات وسُمَّاره النجوم ساهرْ فمن تُرَى علَّمكِ السُّهْدَ ياجفون
صبا إلى مذهب التصابى صابى لايعدل
فجَنْبه خافق الجنابِ نابى مُبَلْبل
والطَّرْف من دائم انسكاب كابى مخبَّل

(١) انظر فى أيدمر فوات الوفيات ١/١٤٠ والانتصار لواسطة عقد الأمصار لابن دقاق (طبع مطبعة بولاق) ٤/١٠٩ وخطط المقريزى (طبعة دار التحرير) ٢/٧ وديوانه طبعته دار الكتب المصرية .

وواضح أنه بدأ موشحه بالدور أو الغصن لابالقفل ، وتلا القفل بالدور فى ثلاثة أبيات ، وكل بيت مكوَّن من ثلاثة أجزاء ، الجزء الثانى مستخرج من آخر الجزء الأول ، فصابى مستخرج من التصابى وبالمثل نابى مستخرج من الجناب ، وكابى مستخرج من انسكاب . وهو تكلف واضح ولكنهم كانوا يعدونه فى الموشحات والأشعار آية براعة فائقة .

المحّار [1] الحلبى

هو سراج الدين عمر بن مسعود الحلبى الملقب بالمحار لأنه نشأ يَمْحر الكتان أى يغسله ويبيضه ثم اشتغل بالأدب والشعر ومهر فيهما ، ففارق موطنه حلب إلى حماة ورعاه صاحبها الملك المنصور (٥٨٧ – ٦١٧ هـ) إلى أن توفى بدمشق سنة ٧١١ . وربما كان أروع وشاح أنجبته الشام على مر الأزمنة والحقب ، ومن موشحاته المشهورة موشحة عارض بها أيدمر المحيوى فى موشحته المذكورة آنفا ويستهلها على هذا النمط :

ماناحت الوَرْقُ فى الغصونِ إلاَّ هاجتْ على تَغْريدها لوعةَ الحزين

هل مامضى لى مع الحبايبْ آيبْ بعد الصدودْ
أوهل لأيامنا الذواهب واهبْ بأنْ تعودْ
بكل مصقولة التَّرائبْ كاعبْ هَيْفاء رُودْ

والموشح يموج على هذه الشاكلة بعذوبة الجرس وجمال الإيقاع والنغم رغم محاولة المحار فيه أن يستخرج الجزء الثانى فى الدور من آخر كلمة فى جزئه الأول ، فقد كان من القدرة على حسن التلحين لكلماته بحيث لايقف دونه أى عائق ، بل إن العائق نفسه يصبح إكمالا بديعا للتلحين والتنغيم على نحو مايتضح فى كلمات « آيب – واهب – كاعب » . . ولايقل عن هذه الموشحة عذوبة ورشاقة وحلاوة فى النغم موشحته التى عارض بها موشحة أحمد بن الحسن الموصلى المار ذكره فى العراق ، افتتحها بقوله :

مذشِمْتُ سَنا البروق من نعمانِ باتت حَسدق

(١) انظر فى المحار فوات الوفيات ٢١٩/٢ ، ٥٠٦ ، ٥٠٨ ، ٥٠٩ والنجوم الزاهرة ٢٢١/٩ والوافى ٢٨٠/٤ وانظر توشيع التوشيح للصفدى إذْ توارد مع صاحب الفوات على أربعةٍ من الموشحات وانظر عقود اللآل رقم ٥٢ ، ٧٦

تُذْكى بمسيل دمعها الهتَّانِ نارَ الحُرَق[١]
ما أومض بارقُ الحِمَى أو خَفَقَا
إلا وأجَدَّ لى الأسى والحُرَقا
هذا سببٌ لمحنتى قد خُلقا

وتصويره لمسيل الدموع المتدفق بأنه يضرم نار الحرق تصوير بديع . وموشحات المحّار على هذا النمط تمتع الأذن والقلب والخيال بصفاء موسيقاها ورقتها ومايُطَوّى فيها من جمال التصاوير .

(د) البديعيات

مرَّ بنا أن الشام – منذ أواخر القرن الثانى الهجرى – تطورت بصور البديع الحسية التجديدية من جناس وطباق وتصاوير إلى إشراك صور جديدة معها من زخرف الفكر ووشيه على نحو ماهو معروف عن أبى تمام ، نافذة بذلك إلى إرساء مذهب جديد فى فن الشعر سميته فى كتاب « الفن ومذاهبه فى الشعر العربى » باسم مذهب التصنيع أى التنميق الناشئ عن استخدام محسنات البديع المعروفة وأيضا عن استخدام طرائف فكرية لاتكاد تُحصَى . وتبع البحترى – كما ذكرنا – أستاذه أبا تمام فى المذهب ولم تكن له ثقافته الفلسفية ولا بعد غوره فى الأفكار . وكان أبو تمام يكثر من الجناس فلم يتابعه البحترى فى هذا الإكثار وإن ظل يستخدمه كما يستخدم الطباق والتصاوير من تشبيهات واستعارات . ونجد الجناس بعده على كل لسان فكل شاعر شامى يحاول أن ينفذ فيه إلى أبيات بديعة كقول أبى فراس الحمدانى[٢] :

وما السلافُ دهتْنى بل سَوَالفُهُ ولا الشَّمول دهتْنى بل شمائلهُ

ولعل شاعرًا شاميًّا لم يكثر من استخدام الجناس كما أكثر أبو العلاء ، وسنراه يدخل عليه ألوانًا من التعقيد سنعرض لها عما قليل ، وكان يعاصره ابن حَيُّوس المتوفى سنة ٤٧٣ وكان يتابع أبا تمام فى الإكثار من المحسنات البديعية جناسا وغير جناس . وترى العماد الأصبهانى فى الخريدة يتوقف مرارًا ليثبت على هذا الشاعر أو ذاك كثرة استخدامه للجناس ، وسجَّل ذلك مرارًا على الشعراء

---

(١) تذكى : تضرم .
(٢) الديوان تحقيق . د . سامى الدهان (طبع المعهد الفرنسى بدمشق) ٢/٣٠٢

الثلاثة الذين افتتح بهم الجزء الأول من شعراء الشام وهم الغزى وابن منير والقيسرانى وفيه يقول : « صاحب التطبيق والتجنيس ، وناظم الدر النفيس » [١] . وعلى شاكلتهم شعراء الخريدة لافى استخدام الجناس وحده بل فى استخدام المحسنات البديعية جميعا ، وكذلك من تلاهم من الشعراء الشاميين .

وكانت قد تكونت بمصر منذ أواخر أيام الفاطميين مدرسة حملت لواء المحسنات البديعية وأشاعتها فى شعرها ونثرها مضيفة إليها لونا جديدا هو لون التورية الذى يصور مزاج المصريين وميلهم من قديم إلى النكتة ، وكان من السابقين إلى حمل هذا اللواء بأخرة من الدولة الفاطمية ابن قادوس وابن قلاقس ، وحمله بعدهما القاضى الفاضل وابن سناء الملك وغيرهما . وكانت ديار الشام جميعها توحدت مع مصر لعهد صلاح الدين ، وسرعان ماوجدنا ذوق هذه المدرسة المصرية يعم بلدان الشام ، كما لاحظ ذلك الصفدى ونقله عنه ابن حِجَّة الحموى فى خزانته إذ ذكر السابقين فى المدرسة من شعراء مصر ثم قال : « وجاء من شعراء الشام جماعة تأخر عصرهم وتأزَّرَ نصرهم » وعدَّ منهم سيف الدين المشد المتوفى سنة ٦٥٦ والشيخ شرف الدين عبد العزيز الأنصارى شيخ شيوخ حماة المتوفى سنة ٦٦٢ وبدر الدين يوسف بن لؤلؤ الذهبى المتوفى سنة ٦٨٠ ومجير الدين بن تميم المتوفى سنة ٦٨٤ والشاب الظريف شمس الدين محمد بن العفيف المتوفى سنة ٦٨٨ ومحيى الدين بن قُرْناص الحموى المتوفى سنة ٧١٢ وتمثل ابن حجة فى خزانته بأشعارهم فى محسنات البديع المختلفة وفتح لكل منهم فصلا طريفا فى باب التورية ، واستطاعوا فى أحوال كثيرة أن يجعلوا لتورياتهم نفس خفة الروح التى تلقانا فى تورية المصريين مثل قول ابن لؤلؤ [٢] :

يمرُّ بى كلَّ حينٍ وكـــلما مـــرَّ يحلو

وهو لايريد « مر » من المرور وهو المعنى المتبادر لكلمة يمر فى أول البيت ، وإنما يريد مرَّ من المرارة عكس الحلاوة ، وهو المعنى البعيد ، ومثل قول مجير الدين بن تميم [٣] :

أياحُسْنَها من روضةٍ ضاعَ نَشْرُها فنادتْ عليه فى الرياضِ طيورُ

ولضاع معنيان : أولها من ضاع الزهر يضوع إذا فاحت رائحته ، وثانيهامن ضاع الشىء

---

(١) الخريدة (قسم الشام) ٩٦/١

(٢) خزانة الأدب للحموى ص ٣٢٨

(٣) فوات الوفيات ٥٤٢/٢

يضيع إذا فُقد والأول المراد . ومثل قول الشاب الظريف وقد احتجب بعض أصحابه عنه [١] :

ولقد أتيتُ إلى جَنابك قاضيا بالَّلثم للعتَبات بعضَ الواجبِ
وأتيت أقصد زورةً أحْظَى بها فرُدِدْتُ - ياعينى - هناك بحاجبِ

وواضح أنه ليس المراد حاجب العين ، وإنما البوَّاب المشرف على الزيارة . وتظل التورية شائعة على ألسنة الشاميين ، ويشيد الحموى فى خزانته باستخدام الوداعى على بن المظفر المتوفى سنة ٧١٦ لها وإكثاره منها كقوله [٢] :

قال لى العاذلُ المفنِّدُ فيها يومَ وافتْ فسلِّمتْ مُخْتالَهْ
قم بنا ندَّعى النبوَّةَ فى العشـ ـق فقد سلَّمتْ علينا الغزاله

وللغزالة معنيان : معنى قريب وهو الشمس ومعنى بعيد وهو صاحبته الجميلة التى تشبه الغزالة وهو المراد .

ويتتبع ابن حجة ماأخذه ابن نباتة من موائد التورية عند الوداعى ، وبالمثل يتتبع ما أخذه الصفدى من ابن نباتة من تورياته البديعة ، وكان الصفدى يعنى عناية شديدة باصطناع المحسنات البديعية وخاصة التورية والجناس ، وله فيها كتابان .

ومضى شعراء الشام - بعد الصفدى - كشعراء مصر يعنون بتلك المحسنات بقية زمن المماليك ، يشترك فى ذلك فتح الدين بن الشهيد المتوفى سنة ٧٩٣ وعلى بن أيبك الدمشقى المتوفى سنة ٨٠١ وابن الأدمى المتوفى سنة ٨١٦ وابن حِجَّة الحموى صاحب الخزانة المتوفى سنة ٨٣٧ . ويطرد اصطناع المحسنات البديعية فى أيام العثمانيين ، ومن أهم ألوانها الاقتباس من القرآن الكريم وتضمين شطور أو أبيات فى قصيدة الشاعر لشعراء سابقين ، وقد اقتبس الصاحب شرف الدين عبد العزيز الأنصارى فواصل « سورة الشمس » فى قطعة غزلية له مستهلا لها بقوله [٣] .

قسمًا بِشَمْس جَبينهِ وضُحاها ونهارِ مَبْسِمهِ (إذا جَلاَّها)

---

(١) خزانة الأدب للحموى ص ٣٣٤
(٢) الخزانة ص ٣٤٣
(٣) ديوان الصاحب شرف الدين الأنصارى (نشر مجمع اللغة العربية بدمشق - تحقيق د . عمر موسى) ص ٥١٥

وتوالت قوافيه : (يَغْشَاها – زَكَّاها – تَقْوَاها – أَشْقاها).ومن طريف الاقتباس فى الغزل قول فتح الدين بن الشهيد [١] :

فى صدرها رُمَّانُ نَهْدٍ زانَهُ حَلْىٌ (يُوَسْوِسُ فى صدور الناسِ)

ويريد بوسوسة الحلى صوته الخفى ، واقتبس – كما هو واضح – آية سورة الناس ومافيها من الاستعاذة من الشيطان الوسواس بما لانفع فيه الذى (يوسوس فى صدور الناس) . وأكثر الشعراء من التضمين لأبيات المتنبى وغير المتنبى من كبار الشعراء ، كقول مجير الدين بن تميم مضمنا لبيت من أبيات المتنبى فى وصفه لزهر اللَّوز إذ يقول [٢] :

أزهرَ اللَّوْزِ أنت لكلِّ زهرٍ من الأزهار يأتينا إمامُ
« لقد حسنتْ بك الأيام حتى كأنك فى فَمِ الدهرِ ابتسامُ »

وعُنى كثيرون باقتباس الشطور الثوانى من معلقة امرئ القيس وتضمينها فى قصائدهم . وسنلتقى بأمثلة كثيرة من ألوان هذه البديعيات فى ترجماتنا للشعراء .

(هـ) التعقيدات

إذا كانت الشام نفذت – على لسان أبى تمام – إلى ابتكار مذهب التصنيع والتنميق فى الشعر العربى ، فإنها هى أيضا التى نفذت إلى ابتكار مذهب التصنع والتعقيد فى الشعر أو قل هى التى أعطته صيغته النهائية ، فقد أخذ الشعراء – منذ أوائل هذا العصر – يتكلفون فى صورهم البيانية ومحسناتهم البديعية ألوانا شتى من التكلف عرضناها فى كتابنا « الفن ومذاهبه فى الشعر العربى » ومانصل إلى أبى العلاء المعرى حتى يبلغ هذا التصنع أقصاه فى ديوانه : « لزوم مالا يلزم » وهو فى مجلدين ضخمين . والقصائد فيه تنتظم حروف المعجم حرفًاحرفا ، وفى كل حرف يأتى بالروى ساكنا ومتحركا بالحركات الثلاث : الضمة والفتحة والكسرة ، والتزم مع كل روى حرفا معينا يسبقه كالباء والتاء وغيرهما . وبذلك أصبح لقصائد هذا الديوان الضخم رويَّان يلزمانها فى حتمية شديدة . وليس هذاكل مافى الديوان من تعقيد ، فقد يكون ذلك أخف مافيه من ألوانه ، إذ نراه يعنى فيه بعرض كلمات غريبة لاتكاد تحصى ، وشغف بالجناس وعقّده بدوره إذ طلبه بين القافية

(١) الخزانة ص ٤٠٤ (٢) الخزانة ص ٤٧٣

وما يسبقها من كلمات البيت ، بل لعله ظن ذلك لايزال شيئا سهلا فطلب أن يكون بين أول كلمة فى البيت وبين القافية كقوله [١] :

أشْراكَ ذَنْبُك والمهيمنُ غافرٌ ماكان من خطإٍ سوى الإشراكِ

ومعنى أشراك : أغراك وأوقعك فى الإثم . ويكثر هذا الجناس المعقد فى لزوم مالايلزم أو فى اللزوميات ، ولايكتفى أبو العلاء بِعُقَد الجناس واللفظ الغريب والروى المتعدد بل يطلب عُقَدًا أخرى من ألفاظ الثقافات ومايتصل بها من اصطلاحات الفلسفة والعلوم الإسلامية وعلوم الأوائل من فلك وغير فلك وعلوم العربية من عروض وغير عروض مثل [٢] :

بقانى الطويلُ وغَيىَّ البسيطُ وأصبحتُ مضطربا كالرَّجَزْ

والطويل والبسيط والرجز من بحور الشعر وأوزانه كما هو معروف ، والرجز أكثرها اضطرابا لكثرة مايجرى فيه من زحافات وعلل .

ولعل فى ذلك مايوضح كيف أرسى أبو العلاء فى الشام مذهب التصنع والتعقيد الشديد وكيف رفعه على دعائم متينة لافى قصيدة واحدة أو فى قصيدتين ، بل فى ديوان كبير . وتبعه شعراء الشام لاينظمون دواوين مثله يلتزمون فيها مالا يلزم من اللوازم التى التزمها جميعا ، ولكنهم يستخدمونها فى الحين بعد الحين كقول ابن حَيّوس متغزلا [٣] :

أوصابُ جسمى من جِناية بُعْدكم والصبرُ صَبْرٌ بعدكم أو صابُ

فقد جانس بين أول كلمة فى البيت وبين القافية المكونة من حرف العطف « أو » وكلمة صاب مثل كلمة صبر أى مُرّ . وعلى هذه الشاكلة قول ابن عُنَيْن [٤] :

خبَّروها بأنه ما تَصَدَّى لسلوٍّ عنها ولو ماتَ صَدَّا

والجناس واضح بين آخر الشطر الأول والقافية ، وهو فيها مكون من كلمتين . ويكثر ذلك عند شعراء العصر حتى نهايته زمن العثمانيين . ويقول الحموى فى خزانته : « كان الشيخ صلاح

---

(١) الفن ومذاهبه فى الشعر العربى (طبع دار المعارف الطبعة العاشرة) ص ٤٠١

(٢) نفس المصدر ص ٤٠٣

(٣) الديوان ٥٨/١

(٤) الديوان (تحقيق خليل مردم طبع دار صادر) ص ٤٩

الدين الصفدى يستسمن ورمه ويظنه شحما فيشبع أفكاره منه ويملأ بطون دفاتره (شعرا ونثرا) ويأتى فيه بتراكيب تخفُّ عندها جلاميد الصخور » . ويسوق من هذه الجلاميد أمثلة لعل أخفها قول الصفدى[١] .

وكم شِمْتُ لما قِسْتُ مقدار وُدِّكم بوارقَ يأسٍ فى بَوارِ قياسِ

والجناس فى الشطر الثانى ، وهو مركب من كلمتين يختلفان معنى وبناء كما هو واضح ، وفيه غير قليل من الثقل فما بالنا بما وراءه من أمثلة ساقها الحموى للصفدى . ولانعدم أن نجد بين الشعراء مَنْ يزرى على هذا التصنع الشديد لجناسات كأنها قطع الصخر كما يقول الحموى مما يجعلها تصك الآذان صكا عنيفا ، ولعله لذلك حمل زين الدين بن الوردى معاصر الصفدى المتوفى سنة ٧٤٩ على من يجعل الجناس له مذهبا فى نظمه ، يقول ناصحا شعراء عصره[٢] :

إذا أحْبِبتَ نظمَ الشعرِ فاختَرْ لنظمك كلَّ سهلٍ ذى امتناعِ
ولاتَـقْصِـدْ بجانسـةً ومـكِّنْ قوافيَه وكِلْهُ إلى الطِّباعِ

وقليلون هم الذين استمعوا إلى نصحه إذ أصبح التصنع منذ زمن أبى العلاء فى القرنين الرابع والخامس ظاهرة عامة تشمل جمهور الشعراء إلا من ندر ، ولهم فى ذلك كثير من الأفانين . وينشد العماد الأصبهانى فى خريدته صورا كثيرة من هذه الأفانين ، وخاصة عند ابن قُسَيم الحموى المتوفى سنة ٥٤١ وهو شاعر نور الدين وأبيه عماد الدين ، وبدأ العماد بصورة معقدة من تصنعه فى القوافى إذ نظم أبياتا على خمس قوافٍ ، يقول فيها مادحا[٣] :

قل للأمير أخى النَّدى والنائلِ الهطَّالِ للشعراء والقُصَّادِ
لازلتَ تـنـهكُ الـعِدا بالذابل العَّسالِ فى الاحشاء والأكبادِ
ووُقِيت من صَرْف الرَّدَى والنازلِ المغتالِ للأعداء والحسَّاد

وواضح أنه يمكن أن تُفْصَل الشطور الأولى من كل بيت وحدها وأن يضاف لكل منها الكلمة التالية أو الكلمتان أو الأربعة ، ومع كل صورة يتكون بيت مستقل ، وهى مهارة تصور قدرة على

---

(١) الخزانة ص ٢٦
(٢) الخزانة ص ٢٧
(٣) الخريدة (قسم الشام) ١/٤٤٤

التصنع والتعقيد . وينشد العمادلا بن قُسَيْم مقطوعة طويلة تتوالى الكلمات فيها بحيث لا تخلو أولاها من صاد وثانيتها من سين أو العكس[١] . ومما أنشده العماد فى خريدته من هذه الصور المتكلَّفة قصيدة لشاعر من شعراء المعرة التزم فى كل كلمة من كلماتها أن لاتخلو من حرف النون [٢] ، وأنشد لشاعر آخر من شعراء المعرة قطعة تُقرَأ على سبعة أوزان[٣] . ولابن عنين حين ألم فى رحلته الكبيرة إلى المشرق بالفخر الرازى فى « هراة » قصيدتان[٤] فى مديحه تشتمل كل كلمة فى أولاهما على حرف السين كقوله فيها .

حَسُنَتْ سريرتُه وقُدِّس سِنْخُهُ وسما بأسلافٍ سراةٍ شُوسِ[٥]

بينما تشتمل كل كلمة فى ثانيتهما على حرف الحاء . وتعلق كثير من الشعراء فى العصر بصنع الألغاز والإجابة عنها ، وأفرد كثيرون لها أبوابا فى دواوينهم على نحو مايلقانا فى ديوان ابن عنين وأيضا فى ديوان مامية الرومى الدمشقى فى زمن العثمانيين . وظل غير شاعر يتصنع لمالايلزم فى بعض مقطوعاته وقصائده وكان للصاحب عبد العزيز الأنصارى مجلد كبير فيه[٦] .

٤

شعراء المديح

يكثر شعراء المديح فى الشام منذ القرن الثانى الهجرى ، وذكرنا أسماء نفر منهم فى غير هذا الموضع ، وقد أهدت الشام فى القرن الثالث إلى الشعر العربى أكبر شاعرين مدَّاحين فيه ، وهما أبو تمام والبحترى . ويتكاثر شعراء المديح كثرة مفرطة فى أول هذا العصر : عصر الدول والإمارات بحلب زمن بطلها سيف الدولة الحمدانى الذى تحول بها إلى أكبر مركز علمى وفلسفى وأدبى ، على نحو مامَّر بنا ، وغدت مقصد الأدباء وحلبة الشعراء ، وجاءوها من كل بلد فى العراق وإيران فضلا عن الشام ، وفى مقدمتهم المتنبى . وظل سيف الدولة نحو عشرين عاما يمزق جموع البيزنطيين ويستولى على كثير من الحصون والبلدان ، والشعراء من حوله ينثرون عليه قصائدهم

---

(١) الخريدة (قسم الشام) ٤٤٧/١
(٢) الخريدة ٤٥/٢
(٣) الخريدة ١٠٨/٢
(٤) الديوان ص ٩٦ ، ٩٨
(٥) السنخ : الأصل ، شوس جمع أشوس : الشجاع المقدام
(٦) فوات الوفيات ٥٩٨/١

ومدائحهم بالعشرات – إن لم يكن بالمئات – مسجلين للبطل العربى مجده الحربى العظيم ، وقد صورنا فى قسم العراق من هذا التاريخ للأدب العربى مدائح المتنبى فيه ، ولن نستطيع أن نعرض هنا مدائح غيره من شعراء العراق مثل ابن نباتة وأبى الفرج البغاء ، فكتاب اليتيمة للثعالبى يحمل من مدائحها ومدائح غيرهما لسيف الدولة روائع بديعة . ويكفى أن نشير إلى من حفُّوا به من شعراء الشام أمثال كشاجم والوأواء الدمشقى وأبى العباس أحمد بن محمد المِصِّيصىّ المشهور باسم النامى ، وكان عند سيف الدولة يتلو أبا الطيب فى المنزلة والرتبة ، وكان شاعرا بارعا ، ومن قوله فيه يإحدى مدائحه [١] :

أميرَ العُلا إن العَوالى كواسيٌ علاءك فى الدُّنيا وفى جنَّة الخُلْدِ
يمرّ عليك الحَوْلُ ، سيفُك فى الطُّلاَ وطَرْفُك مابين الشَّكيمة واللِّبْد [٢]
ويمضى عليك الدَّهْرُ ، فعلُك للعلا وقولك للتَّقْوَى وكفُّك للرِّفْدِ

فسيف الدولة دائما محارب يدق أعناق البيزنطيين بسيفه المسلول ، ودائما ساهر شاكى السلاح وبصره مصوَّب إلى فرسه الذى يعلك باستمرار شكيمته استعدادًا للنزال . وما الإنسان إلا فعل وقول وفعل سيف الدولة دائما للعلا ومنازله الرفيعة وقوله للتقوى ومخافة الله ، أما كفه فللعطاء والنوال السابغ .

وكان سيف الدولة – ومثله الحمدانيون عامة – من الشيعة الإمامية ، مما جعل كثيرين من أهل حلب يعتنقون هذه النحلة ، ومر بنا أن تفرعت عنها فرقة النُّصَيْرية الشديدة الغلو لما تزعمه – كما مرّ بنا – من ألوهية على بن أبى طالب . ومكّن لانتشار التشيع فى الشام استيلاء الدولة الفاطمية على فلسطين ودمشق وكثير من بلدان سوريا منذ سنة ٣٥٩ ونرى نفرا من شعراء الشام ينزلون القاهرة معتنقين – على مايبدو – لتلك النحلة ويتغنون بمديح الخليفة الفاطمى العزيز (٣٦٥ – ٣٨٦ هـ) ووزيره يعقوب بن كلِّس وفى مقدمتهم أبو الرَّقعمق أحمد بن محمد الأنطاكى ، وله فى الخليفة ووزيره غير قصيدة ، ومن قوله فى ابن كلِّس يإحدى قصائده [٣] :

لم يَدَعْ للعزيز فى سائر الأر ض عدوًّا إلا وأَخْمَدَ نارَهْ

---

(١) اليتيمة ١/٢٢٥

(٢) الطلا : جمع طلية أو طُلاة كما مر . وهى العنق أو صفحته . الشكيمة : الحديدة المعترضة فى فم الفرس من اللجام

(٣) اليتيمة ١/٣١٠

كلُّ يومٍ له على نُوَبِ الدَّهـ ـرِ وكَرِّ الخطوب بالبَذْل غارَهْ

ولأبى العلاء المعرى ديوان معروف يسمى « سَقْط الزَّنْد » أكثره مدائح نظمها على سبيل التمرين لاقصدًا لمديح شخص بعينه إلا نادر ، فهو لم ينظم كثرتها طلبا للكسب ونيل العطاء ، وإنما على سبيل التدريب اتباعا لشعراء المديح المنتشرين بزمنه فى كل مكان ، ومن قوله على طريقتهم فى المديح بأولى قصائد سقط الزند :

مَكلَّفُ خَيْلِهِ قَنْصَ الأعادى وجاعلُ غابِهِ الأسَلَ الطِّوالا
تكاد قِسِيُّه من غير رامٍ تُمكِّن من قلوبهم النِّبالا

فالخيل لكثرة ما جعلها الممدوح تمارس القتال تقتنص بنفسها الرجال . وإنه لأسد حقا غير أن عرينه ليس غابًا بل رماحًا طوالا تخطف الأرواح خطفا ، وإن قِسِيَّه لتصيب أعداءه فى الصميم دون رام يتزع عنها النبل والسهام ، وهى مبالغة مألوفة عند أصحاب المديح لأيامه .

ومرَّ بنا أن بنى مرداس خلفوا الحمدانيين فى حلب ، وعُنى منهم خاصة محمود بن نصر بجمع الشعراء حوله فاجتمع فى حاشيته كثيرون منهم عبد الواحد الحلبى الربعى وابن حَيّوس الدمشقى وابن النحاس الحلبى وابن سنان الخفاجى . وحدث أن قطبان أنطاكية أو بطريقها استولى فى شعبان سنة ٤٦١ على حصن « أسفونا » ونكّل تنكيلا شديدا بأهله ، فحاصره محمود بن نصر وفتك بجميع رجاله ، وكانوا نحو ألفين ، وردَّ محمود الحصن على أهله ، وهنَّأه ابن سنان الخفاجى بهذا النصر المبين قائلا فى إحدى قصائده[1] .

إنْ أظهرتْ لعُلاكَ أنطاكيَّةٌ حُزْنًا فقد ضحكتْ على قُطْبانها
لما أطلَّ له لواؤك خافقًا عُرِفتْ وجوهُ الذُّلِّ فى صُلْبانها

وحين زار حلب نظام الملك وزير ألب أرسلان السلجوقى قدَّم له كثيرون من شعرائها مدائحهم ، وكان وافر العقل بصيرا بتدبير الملك سَيُوسًا بعيد النظر ، فساس الدولة السلجوقية خير سياسة ، وهو مؤسس المدارس أو الجامعات النظامية فى العراق وإيران ، وله يقول محمد بن أحمد الشطرنجى الحلبى من مدحة طويلة على أبواب حلب[2] .

---

(١) زبدة الحلب من تاريخ حلب لابن العديم ٢/١٤ وما بعدها والديوان طبعة بيروت ص ١١٣ .

(٢) دمية القصر ١/١٩٩

يا خَيْرَ من خفقتْ عليهِ رايةٌ وأجلَّ معقودٍ عليه لواءُ
لك كلَّ يوم مِنَّةٌ سيَّارةٌ فى الخافقين وغارةٌ شعواءُ

وذكرنا – فيما أسلفنا – أن بنى عمار استطاعوا أن يكوِّنوا لهم فى النصف الثانى من القرن الخامس الهجرى إمارة بطرابلس ، وكانوا يُقرِّبون منهم الشعراء ويجزلون لهم فى العطاء ، وذكر العماد الأصبهانى فى الخريدة نفرا من شعرائهم فى مقدمتهم ابن العَلاَّفى المعرى ، وله من مدحة فى عمار بن محمد بن عمار : آخر أمرائهم[1] :

يحتاطك التوفيقُ لايألوك فى تسهيلهِ لك كلَّ صعبٍ أوْعَرِ
دامتْ لك النعماء موصولةً بها توفيقُ منصورِ اللواء مظفَّرِ

وسقطت من يده طرابلس فى حجر الصليبيين ، وكانت لذلك مناحة كبيرة بين المسلمين . وكان ابن العلافى – فيما يبدو – شيعيا ، ولعله لذلك رحل إلى القاهرة وقدَّم مدائحه إلى الوزير الأفضل بن بدر الجمالى ، وله يقول فى إحدى مدائحه[2] :

ليَزْدَدْ عُلُوًّا ملكُ مصرَ فإنها بهِ حرمُ اللهِ العزيزِ المحرَّمُ
فمكةُ مصرٌ ، والحجيجُ وفودُه ويمناه ركنُ البيت ، والنِّيل زمزمُ

ومن كبار الشعراء الذين نشأوا فى حجر بنى عمار واستظلوا بما أحدثوا فى طرابلس من حركة أدبية الشاعر الدمشقى ابن الخياط وسنخصه بترجمة مستقلة .

وأمراء حصن شيزر : بنو مقلَّد بن مُنْقذ على شاكلة بنى عمار فى طرابلس يتردد مديحهم على ألسنة الشعراء منذ استخلص على بن مقلد بن منقذ « شَيْزَر » من أيدى الروم سنة ٤٧٤ وظلت أسرته تحكمها حتى أتى عليها زلزال شديد سنة ٥٥٢ هدمها من قواعدها وأهلك سكانها . وتغنى الشعراء طويلا باسم محررها فى القرن الخامس على بن منقذ وبخلفائه فى حكمها ، كما نجد عند ابن منير والقيسرانى .

ويلقانا فى أواخر القرن الخامس والربع الأول من القرن السادس شاعر فلسطينى هو الغَزِّى إبراهيم بن يحيى المتوفى سنة ٥٢٤ وقد ترك غزة مسقط رأسه مبكرا إلى دمشق يختلف الى شيوخها ، ثم رحل إلى بغداد وظل بالمدرسة النظامية فترة طويلة مدح فيها ورثى كثيرين من علمائها ، ثم تركها

(١) الخريدة (قسم الشام) ٢/٧٨ (٢) الخريدة ٢/٨٢

إلى كَرْمان وشيراز فى فارس وهراة فى أفغانستان وكلما ألم ببلد مدح أمراءها ووزراءها حتى وفاته فهو شاعر جوَّال ، وله أشعار كثيرة رائعة فى المديح وغير المديح ، وله فى ابن مكرم وزير كَرْمان مدائح بديعة من مثل قوله[١] :

مادعوناه من بنى الدَّهر إلا أهَّلَ الدَّهْرُ نفسه للتَّهانى
جُمِع الأُسْدُ والكواكب والأبـ ـحُرُ والناسُ منه فى إنسانِ
واستجابتْ له مناقبُ شتَّى لم تَجُلْ فى خواطر الإمكانِ

ويتنبه البطل المغوار أتابك الموصل عماد الدين زنكى منذ أوائل العقد الثالث من القرن السادس الهجرى إلى أن تخاذل المسلمين أمام حَملة الصليب مرجعه إلى تفرق البلدان الإسلامية المجاورة لهم وأنه لابد من جمع كلمتها تحت لواء واحد . ويستولى على حلب وبعض بلدان سوريا الشمالية ، وماتوافى سنة ٥٣٤ للهجرة حتى يسوق إلى الصليبيين جيشا جرارا بقيادته ، وينازلهم بالقرب من حماة ويعصف بجموعهم ، ويستولى على حِصْن بارين بين حماة وحلب . وكأنما استيقظ الشعر حينئذ من سُباته الطويل . ويتبارى الشعراء فى مديحه والإشادة بانتصاره ، وفى مقدمتهم ابن منير والقيسرانى . ولم يلبث فى سنة ٥٣٩ أن فتح مدينة الرُّها مزيلا منها جوسلين ودولته الصليبية إلى غير رجعة ، وهلل الشعراء فى كل مكان لهذا الفتح المبين ، وفيه يقول ابن منير[٢] :

فتحٌ أعادَ على الإسلام بهجتَهُ فافترَّ مَبْسِمُه واهتزَّ عِطْفاهُ
أين الخلائفُ عن فتحٍ أُتيح له مظلِّلٌ أُفقَ الدنيا جَناحاه

ومضى ابن منير فى القصيدة يُعلى – بحق – هذا الفتح على فتح المعتصم لعمّورية أكبر مدن آسيا الصغرى فى زمنه ، فقد قضى زنكى على المملكة الرابعة لحملة الصليب ، وكانوا قد أسسوها شمالى العراق . وبدا حينئذ – فى الأفق – أمل كبير فى أن ممالكهم التى أسسوها فى أنطاكية وطرابلس وبيت المقدس لابد أن تسقط فى أيدى المسلمين مهما طال الزمن .

وامتدت إلى عماد الدين سنة ٥٤١ يَدٌ آثمة فى الظلام ففتكت بالبطل الباسل ، وحمل الراية بعده ابنه نور الدين ومضى يجاهد الصليبيين ، وغرَّت الأمانى جوسلين فعاد إلى الرُّها ، واستردها

(١) الخريدة (قسم الشام) ٥١/١ لابن واصل تحقيق الدكتور الشيال ٩٣/١
(٢) الروضتين لأبى شامة ٣٩/١ وانظر مفرج الكروب

سريعا نور الدين وفرَّ جوسلين ، وهنَّأه الشعراء بهذا الفتح المبين ، وفى مقدمتهم ابن قُسَيْم الحموى بمثل قوله[١] :

تبدو الشجاعةُ من طلاقةِ وجهه كالرمح دلَّ على القساوة لِينُهُ
والدينُ يشهد إنه لمعزُّهُ والشِّرْكُ يعلم إنه لمهينُهُ
فتح الرُّها بالأمس فانفتحتْ له أبوابُ ملكٍ لايُذَالُ مَصُونُهُ[٢]

وولَّى نور الدين وجهه نحو سوريا فاستولى من حملة الصليب على حصن أرتاح سنة ٥٤٤ . ونازل صاحب أنطاكية وجموعَه ، وخرَّ صريعا بيد أسد الدين شيركوه وفرَّتْ جموع الصليبيين مهزومة مدحورة . وعاد نور الدين إلى حلب ، والشعراء يهللون بمثل قول ابن منير فى مطلع قصيدة له[٣] .

أقْوَى الضلالُ وأقفرتْ عَرصاتُه وعلا الهُدَى وتبلَّجتْ قَسماتُهُ

وظلت أيام نور الدين محمود أعيادَ نصر على حَملة الصليب ، وظل الشعراء يدبجون فيه مدائح رائعة ، وقد استولى من الصليبيين على أفامية سنة ٥٤٥ واستولى من بيت طغْتِكين على مدينة دمشق سنة ٥٤٩ وبهنئه عالمها وحافظها ابن عساكر قائلا[٤] .

لقد بلغتَ بحمد الله منزلةً عَلِيَّةً فاقصُدِ العالى من القُرَبِ
وطَهِّرِ المسجدَ الأقصى وحَوْزَتَهُ من النَّجاساتِ والإشراك والصُّلُبِ

وفى نفس السنة يهزم الصليبيين بدُلوك من ثغور حلب ، ويتنازل له حملة الصليب فى أنطاكية عن نصف أعمال حارم . واستولى على شَيْزر وبَعْلبك وصَرْخد ، وشُغل بإرسال نور الدين شيركوه وابن أخيه صلاح الدين إلى مصر سنة ٥٥٨ وتطورت الظروف وتملك صلاح الدين مصر . ونور الدين محمود يُعَدُّ بحق منشئ الدولة الأيوبية . ولم يلبث فى سنة ٥٥٩ أن استولى على مدينة حارم ، وأخذت حصون كثيرة تتساقط فى يده ، ويتغنى بانتصاراته الرائعة العماد الأصبهانى قائلا فى مطالع إحدى قصائده[٥] .

---

(١) الخريدة (قسم الشام) ٤٧٤/١ وما بعدها
(٢) يذال : يهان .
(٣) الروضتين ٥٨/١ ومفرج الكروب ١٢٢/١ أقوى : أقفر . عرصاته : ساحاته . تبلجت : أضاءت .
(٤) الخريدة (قسم الشام) ٢٧٧/١ .
(٥) الخريدة (بداية قسم الشام) ص ٥٤

ياواحدا فى النَّصْرِ غيرَ مشارَكٍ أقسمتُ مالك فى البسيطة ثانِ
كم وقعةٍ لك فى الفَرَنْج حديثُها قد سار فى الآفاق والبُلدانِ
وجعلتَ فى أعناقهم أغلالهم وسَحَبْتهم هُونًا على الأذقانِ

ويحمل الراية بعد نور الدين فى منازلة حملة الصليب البطل المظفر صلاح الدين مؤسس الدولة الأيوبية، وفتوحه العظيمة مصوّرة فى الجزء الخاص بمصر، وما وافت سنة ٥٨٣ حتى تمت له هذه الفتوح بعد وقعة حطين المباركة التى استولى بعدها على بيت المقدس أهم مملكة كانت لحملة الصليب كما استولى على كثير من الحصون على الساحل الشامى، ولم يبق فى الشام ولا فى الموصل والعراق شاعر إلا وتغنى بفتوح هذا البطل الباسل، تغنى بها سبط بن التعاويذى البغدادى وموفق الدين الإربلىّ والشاتانى الموصلى وابن الساعاتى الدمشقى وله مدائح كثيرة متناثرة فى كتاب الخريدة، وللعماد فى هذه الفتوح قصيدة رائعة أنشدنا منها قطعة فى الجزء الخاص بمصر، ولابن الشحنة الموصلى فيه مدحة طارت شهرتها لقوله فيها هذين البيتين السائرين[١]:

وإنى امرؤ أحْبَبْتكم لمكارمٍ سمعتُ بها والأذْنُ كالعين تَعْشَقُ
وقالتْ لىَ الآمالُ إن كنت لاحقًا بأبناء أيوبٍ فأنت الموفَّقُ

ودار الزمن ودانت مصر والشام – بعد صلاح الدين – لأخيه العادل ، ولابن عُنَين الدمشقى فيه وفى ولديه المعظم عيسى والأشرف موسى مدائح مختلفة . وبينها رائية بديعة فى العادل يستعطفه بها فى العودة إلى دمشق وكان صلاح الدين نفاه منها لكثرة أهاجيه فى أهلها ، وأذن له العادل فى العودة ، وفيها يقول[٢] :

العادلُ الملك الذى أسماؤه فى كل ناحيةٍ تشرِّف مِنْبرا
نسختْ خلائقه الكريمةُ ماأتى فى الكُتْب عن كسرى الملوك وَقَيْصرا
مَلِكٌ إذا خفَّتْ حلومُ ذوى النُّهَى فى الرَّوع زاد رزانةً وتوقُّرا

ومعروف أن آل أيوب توزعوا فيما بينهم بلدان الشام ، وكان لكل منهم شاعره الذى يتغنى بمناقبه وأعماله ، ونذكر من بينهم نور الدين مودود شِحْنة دمشق ابن أخى صلاح الدين لأمه ،

---

(١) النجوم الزاهرة ٥٨/٦ صادر) ص ٦

(٢) ديوان ابن عنين (تحقيق خليل مردم – طبع دار

وهو ممدوح فتيان الشاغورى دبَّج فيه مدائح كثيرة . وحرى بنا أن نذكر ملوك حماة الأيوبيين ، وكانوا ممدَّحين . وممن أسبغ عليهم مدائحه الصاحب شرف الدين عبد العزيز الأنصارى ، وله فى صاحبها المظفر محمود (٦٢٦ – ٦٤٢ هـ) وابنه المنصور سيف الدين محمد (٦٤٢ – ٦٨٣ هـ) مدائح كثيرة ، وكان للثانى موقف محمود حين أحس بأن التتار سيغزون الشام إذ التجأ بأسرته إلى مصر حتى إذا التحم القتال بين المصريين والتتار فى عين جالوت كان فى مقدمة المحاربين البسلاء ، ونوَّه الصاحب الأنصارى بهذا الموقف الشجاع طويلا بمثل قوله[1] :

بَعيْن جالوتَ خُضْتَ بَحْر وَغىً يُخال فُلْكا بالأسْد مَشْحونا
وكنت للجيش غُرَّةً شَدخَتْ أنوفَهم فانثنوا مُوَلِّينا

وطوال أيام المماليك كان يرتفع صوت الشعر للتنويه بأعمالهم . وكان لانتصاراتهم على التتار أو المغول بعد موقعة عين جالوت حظ كبير من الشعر ، ومرَّ بنا فى قسم مصر أن الظاهر بيبرس كان دائما يتعقبهم فى الموصل وعلى شواطئ الفرات وسمع بحشود لهم على شاطئه الشرقى فخاض إليها لُجَجَهَ وخاضها جيشه معه ومزقهم شر مُمَزَّق ، وفى هذه الغزوة يقول الموفق عبد الله الأنصارى الدمشقى[2] .

الملكُ الظاهر سلطانُنا نَفْديه بالأموال والأهلِ
اقتحمَ الماء ليُطفى به حرارةَ القلب من المُغْل

ولم يستول الظاهر بيبرس ولا قلاوون ولا الأشرف خليل على حصن أو بلد من حملة الصليب إلا وجلجل الشعر ، حتى إذا أنهى الأشرف خليل الحروب الصليبية باستيلائه على عكا آخرِ حصونهم أخذ شعر المديح فى الشام يتحوَّل إلى شعر مناسبات لمديح الحكام حين يستولون على أزمة الأمور أو حين تمر بهم بعض الأعياد أو بعض الأحداث .

ويظل الشعراء أيام العثمانيين يقدمون مدائحهم للحكام ، وكان شعراء الشام حينئذ قريبين من إستامبول وكانوا لايزالون غادين عليها رائحين ، مما جعلهم يكثرون من مديح سلاطينهم ، على نحو

---

(١) الديوان (بتحقيق عمر موسى – نشر مجمع اللغة العربية بدمشق) ص ٤٧٥

(٢) النجوم الزاهرة ١٦٠/٧

مايلقانا فى ديوان مامية الرومى المتوفى سنة ٩٨٧ ومديحه فيه للسلاطين سليمان وسليم الثانى ومراد الثانى . ويكثر حينئذ مدح العلماء وأعيان البلدان فضلا عن حكامها ، وأخذ الشعراء يكثرون مثل المصريين من التاريخ بالشعر يؤرخون قدوم حاكم أو مناسبة من المناسبات يجعلون ذلك فى آخر شطر بالمدحة إذ تحسب حروف الكلمات فيه بحساب الجُمَّل ، فيكون المجموع سنة الولاية للحاكم أو سنة المناسبة . وجدير بنا أن نعرض نفرًا من شعراء المديح النابهين .

ابن الخياط (١)

هو أبو عبد الله أحمد بن محمد التغلبى نسبة إلى قبيلة تغلب المولود بدمشق سنة ٤٥٠ لخياط اشتهر بنسبته إليه ، فهو من أبناء عامة الشعب الدمشقى . ودائما يلقانا فى كل البلدان العربية شعراء من أولاد العامة ، لأن الثقافة العربية الإسلامية كانت مناهلها مفتوحة الأبواب دائما ، إذ كان الشيوخ فى المساجد يعرضونها على الناس جميعا شبانا وشيبا ، وكانت المساجد أو الجوامع الكبرى تشتمل على مكتبات غاصة بالكتب فى كل علم وكل فن وكذلك بدواوين الشعراء ، مما أتاح للشباب فى كل بلد عربى أن يتزود بماشاء من الثقافة علمية وأدبية وأن ينبغ بينهم علماء وأدباء وشعراء لاحصر لهم .

وشهد ابن الخياط فى صباه دمشق ثائرة على حكم بدر الجمالى ، حتى لقد أشعل أهلها النار فى قصره سنة ٤٦٠ وسرت النار إلى الجامع فسقطت سقوفه وتناثرت فصوصه المذهبة ، ونُهبت الدور والدكاكين ، وظل هذا الاضطراب سائدا فى دمشق وأخذ السلاجقة يحاصرونها ابتغاء الاستيلاء عليها حتى تم لهم ذلك سنة ٤٦٨ وتملكها تُتُش أخو السلطان ألْب أرْسلان .

ومعنى ذلك أن الحياة كانت سيئة سوءًا شديدًا بدمشق منذ سنة ٤٦٠ حتى نزلها تتش مما جعل كثير من أهلها يهاجرون منها إلى بلدان الشام الأخرى . وكان ممن هاجر منها فى هذه الأثناء ابن الخياط وكان لايزال فى بواكير شبابه ، وولَّى وجهه نحو حَمَاة ، ووفد على أمير بها يسمى محمد بن مالك فقربه منه واتخذه كاتبا له ، فعُرف باسم ابن الخياط الكاتب ، وفيه يقول :

حَبانى جودُهُ عَيْشًا كأنّى ظفرتُ به من الدَّهْر استراقا

---

(١) انظر فى ترجمة ابن الخياط وشعره تهذيب تاريخ ابن عساكر ٦٧/٢ وذيل تاريخ دمشق لابن القلانسى ٢٣٤ والخريدة (بداية قسم الشام) ص ١٤٢ والعبر ٣٩/٤ وابن خلكان ١٤٥/١ والشذرات ٥٤/٤ ومقدمة ديوانه بتحقيق خليل مردم (طبع المجمع العلمى العربى بدمشق)

وكان شاعرُ بلدته ابنُ حَيُّوس حين اضطربت الأحوال فى دمشق سنة ٤٦٤ تركها إلى حلب وعاش بها فى كنف بنى مرداس ، فرأى أن يتبعه هناك ، ولقيه ابن حيوس لقاء حسنا ومنحه ثيابا ودنانير مع تنويهه بشعره . وأوصاه أن يفد على بنى عمار أصحاب طرابلس لرعايتهم الشعر والشعراء ، إذ سيجد عندهم مبتغاه . غير أنه عاد إلى حماة ، وكان كلما ألم بها أمير من أمراء بلدان الشام مدحه على نحو مايلاحَظ من مدحه للأمير الحلبى وثاب بن محمود بن صالح وله يقول :

لقد لبستْ بك الدُّنيا جمالاً فلو كانت يَدًا كنت السِّوارا

ويبدو أنه مرَّ بحماة على بن مقلَّد بن منقذ بعد استيلائه على حصن شَيْزر ، فاتصل به الشاعر ومدحه ومدح معه أسرته وماشتهروا به من بسالة وما أتاحوا لحصنهم الأشم من مناعة ، وفى ذلك يقول :

هُمُ غادروا بالعزِّ حَصْباء أرضهم أعزَّ منالا من نجومِ الغَياهبِ

ونرى ابن الخياط فى سنة ٤٧٦ يأخذ بنصيحة مواطنه الشاعر الكبير ابن حَيُّوس ، فينزل طرابلس قاصدا بنى عمار ويستقبلونه استقبالا حافلا ، وكان يحكمها حينئذ منهم جلال الملك أبو الحسن على بن محمد بن عمار (٤٦٤ – ٤٩٤ هـ) وله فيه مدائح رائعة ، وربما كانت أولاها داليته ، وفيها نحسّ فرحته بلقائه من مثل قوله :

كفى بِنَدَى جلال الملْك غَيْثًا إذا نزحتْ قَرارةُ كلِّ وادِ
فمن ذا مُبْلغ الأملاكِ عنا وسُوَّاسِ الحواضر والبوادى
بأنَّا قد سكنَّا ظلَّ مَلْكٍ مَخُوفِ البأسِ مرجوِّ الأيادى
فما نخشى محاربة الليالى ولانرجو مسالمةَ الأعادى

وهنئ بمقامه فى ظل بنى عمار بطرابلس ، وصحب فيها طائفة من الأدباء كانوا يخرجون للمتنزهات وينعمون بمشاهدها الطبيعية البديعة . ومن حين إلى آخر كان يمدح جلال الملك فى المناسبات كمرور الأعياد . وله فى أخيه فخر الملك قصائد لاتقل روعة عن قصائده فيه ، ومن قوله فى إحداها :

أأرتجى غيرَ عمَّارٍ لنائبةٍ إذنْ فلا آمَنَتْنى كفُّهُ النُّوبا

المانعُ الجارَ لو شاء الزمانُ له مَنْعا لضاق به ذَرْعًا وإنْ رَحُبا
الباذلُ المالَ مسئولاً ومبتدئا والصَّائنُ المجدَ موروثًا ومكتسبا

وظل فى طرابلس حتى سنة ٤٨٦ وفيها احترقت داره واحترق كل ما كان بها من أثاث ، فحزن حزنًا شديدًا.

وعَبث بابن الخياط الحنينُ إلى دمشق مسقط رأسه وموطن خلاَّنه بها أيام الشباب ، فعاد إليها وكان ملكها حينئذ تتش السلجوق وقربه منه وزيره هبة الله بن بديع الأصبهانى ، واصطحبه معه إلى « الرىّ » بفارس وهناك أنشده مدحة فيه ، ورحل إلى خراسان ، ولم يلبث أن عاد إلى دمشق سنة ٤٨٧ وامتدح أمير قبيلة بنى كلب حسان بن مسمار بقصيدتين ، وفتح له أمير الجيش عضب الدولة آبق أبوابه فمدحه بقصيدة بائية ربما كانت أروع قصائده ، وتوالت مدائحه فيه حتى توفى سنة ٥٠٢ ومن قوله فى البائية :

وماآبقٌ إلا حَيًا مُتَهلِّلٌ إذا جادَ لم تُقْلع مواطرُ سُحْبِهِ
أغرُّ غياثٌ للأنام وعصمةٌ يُعاش بنُعْماه ويُحمَى بذَبِّهِ
ولم يُرَ يوما راجيًا غيرَ سَيْفِهِ ولم يُرَ يوما خائفًا غيرَ ربِّه
حُبِيتَ حياءً فى سماحٍ كأنه ربيعٌ يَزين النَّوْرُ ناضرَ عُشْبه

والقصيدة رائعة حقا ، نوه بها القدماء طويلا كما نوهوا بغزلها وسننشد منه قطعة فى حديثنا عن شعراء الغزل .

وكان الصليبيون قد استولوا على بيت المقدس سنة ٤٩٢ وأخذوا بعد ذلك عدة بلدان على الساحل الشامى فى السنوات التالية وكثرت الشكايات منهم ، وواقعهم طُغْتِكين صاحب دمشق على سواد طبريَّة سنة ٤٩٩ وفى السنة التالية حاصر بلدوين صاحب القدس صَيْداء ، وفى ديوان ابن الخياط قصيدة يحض فيها عضب الدولة أمير الجيش فى دمشق على منازلة الصليبيين ، وفيها يقول مستنفرًا الدمشقيين للجهاد :

لقد جاشَ من أرْض إفْرنْجَةٍ جيوشٌ كمثل جبالٍ تَرَدَّى
أنومًا على مثل هَدِّ الصَّفَاةِ وهزلا وقد أصبح الأمر جِدًّا
وكم من فتاةٍ بهم أصبحتْ تَدُقُّ من الخوف نَحْرًا وخَدًّا

فحاموا على دِينكم والحَريمِ محاماةَ مَنْ لايرى الموتَ فقدا
فقد أَيْنَعَتْ أَرؤُسُ المشركين فلا تُغْفلوها قِطافًا وحَصْدا

وله وراء هذه القصيدة مرثية لبطل استشهد فى حرب حملة الصليب سننشد منها قطعة فى الحديث عن شعراء الرثاء والشكوى أنشدها كالقصيدة السالفة عضب الدولة المتوفى – كما مرَّ بنا – سنة ٥٠٢ . ولانجد له وراء هاتين القصيدتين شعرا حماسيًّا ضد حملة الصليب مع أنه عاش حتى سنة ٥١٧ مما يجعلنا نظن ظنا أن شعراء الشام فى الربع الأول من القرن السادس على الأقل قَصَّرُوا فى استثارة الأمة ضد حملة الصليب حينئذ . وله فى هذه الفترة التى عاشها بعد عضب الدولة مدائح فى بعض الرؤساء والوزراء ورِجال الشرطة الدمشقيين وغيرهم من الأعيان والقواد ، وآخر قصيدة له نظمها فى مرضه الأخير يسترفد ابن القلانسى المؤرخ ، وفيها يثنى على أدبه وكتابته بمثل قوله .

له فِقَرٌ لو تجسَّدْنَ لم يُفَضَّلْن إلا بهنّ العُقودُ
فَيُظْلَمْنَ إن قيل نَوْرٌ نَضِيرٌ ويُبْخَسْنَ إن قيل دُرٌّ نَضِيدُ

ويبدو من شعره أنه كانت له مجالس مع بعض الأدباء يتنادمون فيها على الشراب ويسترسلون فى اللهو والطرب بسماع بعض المغنين ، كما كانت له نُزَهٌ كثيرة فى الغوطة وبساتينها ، ويبدو أنه كان يولع بلعب النَّرد مع بعض رفاقه ، وله فيه قصيدة بديعة بديوانه ، رواها العماد الأصبهانى فى خريدته . وواضح أن شاعرية ابن الخياط كانت شاعرية خصبة كما يتضح من طول قصائده ومن لغتها الجزلة الناصعة دون تكلف للغرابة أو مايشبه الغرابة ، ومع جمال الموسيقى والجرس الصوتى وأنغامه ، ومع تصاويره المبتكرة الفذة .

ابن[1] القَيْسَرانى

هو أبو عبد الله محمد بن نصر ، من سلالة خالد بن الوليد البطل العظيم ، ولد بعكا سنة ٤٧٨

(١) انظر فى ترجمة ابن القيسرانى وشعره الخريدة (قسم الشام) ٩٦/١ وابن القلانسى : ٣٢٢ ومرآة الزمان لسبط ابن الجوزى (طبع حيدر آباد) ٢١٣/٨ ومعجم الأدباء ٦٤/١٩ وعبر الذهبى ١٣٣/٥ وابن خلكان ٤٥٨/٤ والنجوم الزاهرة ٢١٣/٥ والروضتين ٥١/١ فى حروب عماد الدين زنكى وابنه نور الدين محمود والشذرات ١٥٠/٤ وصدى الغزو الصليبى فى شعر ابن القيسرانى للدكتور محمود إبراهيم وتوجد مخطوطة من ديوانه – وهى مختارات منه – بدار الكتب المصرية .

وانتقل به أبوه وهو فى صباه إلى قَيْسارِيَة[١] ، فنسب إليها وقيل ابن القيسرانى إذ نشأ بها ، ويبدو أنه هاجر منها مبكرا بعد استيلاء حَملة الصليب عليها سنة ٤٩٤ وأبعد فى هجرته إلى الشمال إذ نزل حلب ، وأقام فيها طويلا ربما نحو عقدين من السنين ، ثم نزل دمشق . والقدماء مختلفون منهم من يقول إنه نزل حلب أولا ثم نزل دمشق ، ومنهم من يقول بل نزل دمشق ثم نزل حلب ، ودفعنا إلى ترجيح الرأى الأول أننا سنجده عما قليل أهم شاعر شامى عُنى بتصوير البطولة العربية فى الفتك بحملة الصليب منذ سنة ٥٢٣ للهجرة وقد تجاوز الأربعين من عمره . وكانت دمشق كثيرا ماتشتبك مع الصليبيين فى حروب وتردهم على أعقابهم خاسرين كما حدث فى عهد حاكمها طغتكين سنة ٥٠٢ ويعود طُغْتِكين مع مودود صاحب الموصل إلى كسرهم على طبريَّة سنة ٥٠٧ واستطاع أن يهزمهم فى البقاع سنة ٥١٠ وهزم صاحب أنطاكية سنة ٥١٣ .

وكل هذه الأحداث والانتصارات العظيمة لطغتكين لانجد لها أى ذكر أو صدى فى شعر ابن القيسرانى مما يدل على أنه كان غائبا عن دمشق طوال هذه المدة . على كل حال يدل غياب هذه الأحداث السالفة على أنه لم يكن بدمشق فى أثنائها وأنه نزل حلب أولا وأقام بها حتى نهاية العقد الثانى من القرن السادس ثم نزل دمشق بعد ذلك . ويدل دلالة قاطعة على أنه كان بها فى عهد بورى بن طغتكين (٥٢٢ – ٥٢٦ هـ) أننا نجده ينشده أولى قصائده فى الحروب الصليبية حين هزم حَملة الصليب على أبواب مدينته فى أواخر سنة ٥٢٣ وفيها يقول :

وافوا دمشقَ فظنوا أنها جِدَةٌ ففارقوها وفى أيديهم العدمُ
وغادروا أكثر القُرْبان وانجفلوا وخلَّفوا أكبر الصُّلْبان وانهزموا[٢]

وكان – كما قال مترجوه – يتولى فى أثناء مقامه بدمشق إدارة الساعات بها إلى أن تولى شمس الملوك بن بورى (٥٢٦ – ٥٢٩ هـ) حُكْمها ، فاصطدم به ابن القيسرانى ، مما جعله يهجوه ، وعلم بهجائه فضاقتْ عليه الأرض بما رحُبت ، وفر منه بعيدًا إلى العراق . وترك العراق سريعا إلى حلب حين سمع بانتصارات عماد الدين زنكى على حملة الصليب واستيلائه منهم على المعرة وبعَرْين ، وتتأكد صلته به منذ سنة ٥٣٤ إذ نجده يشيد بانتصاره على جموع الصليبيين واستيلائه منهم على حصن بارين غربى حلب فى الطريق إلى حماة ، ويشعر فى عمق ببطولة العرب وعماد الدين قائلا :

---

(١) كانت ثغرا كبيرا من ثغور فلسطين .
(٢) انجفلوا : تشردوا

حَذارِ منا وأنَّى ينفع الحذَرُ وَهْيَ الصوارم لاتُبْقى ولاتذَرُ
وأين ينجو ملوك الشِّرْك من ملكٍ مِنْ خَيْله النصرُ بل من جُنْده القدَرُ

ثم يكون نصر عماد الدين العظيم باستيلائه على الرُّها من يدجوسلين ومحو عار هذه المملكة أو الدولة التى أقامها الصليبيون شمالى العراق آملين فى الانحدار منها إلى الجنوب ، وإذا عماد الدين يستولى عليها بجيوشه وبطولته الخارقة سنة ٥٣٩ وتكون لذلك رنة فرح عظيم فى نفس ابن القيسرانى ونفوس المسلمين وينشد :

سمتْ قِبْلة الإسلام فخرا بِطَوْلِهِ ولم يَكُ يسمو الدين لولا عمادُهُ[1]
مصيبُ سهامِ الرأى لو أن عَزْمه رمى سدَّ ذى القَرْنين أصْمَى سِدادَهُ[2]
فقُلْ للوك الكفر تُسلِمْ بعدها ممالكَها إن البلادَ بلادهُ

ونرى ابن القيسرانى – بعد هذا الفتح المبين – بنحو عام يزور أنطاكية ، ويقول العماد إنه زارها لحاجة عرضت له ، ولانَدرى هل كانت حاجة سياسية لأمير أوكانت حاجة شخصية ، ويغلب على ظننا أنها كانت حاجة سياسية ، والمهم أنه شبَّب بإفْرنجيات وبراهبات وتمادى فى هذا التشبيب ، وسنذكر طرفا منه فى حديثنا عن شعراء الغزل . وعاد من رحلته إلى عماد الدين ووزيره جمال الدين بن أبى منصور ، وله فيه مدائح بديعة .

وتطورت الأمور سريعا فقُتل عماد الدين بيد آثمة ، كما أسلفنا وحمل لواء الجهاد بعده الملك العادل نور الدين ، وتغرُّجوسلين الأمانى ووقوف الأومن معه ، فيعود إلى الرها ، ويخرجها منه نور الدين منكِّلا بالأومن ، ويهنئ ابن القيسرانى الوزير ابن أبى منصور بهذا الانتصار قائلا :

ليَهْنك ماأفرجَ النصرُ عنه ومانالَه الملكُ العادلُ
وإنْ يك فَتْحُ الرُّهَا لُجَّةً فساحلُها القُدْسُ والساحل

وحقا عظم الأمل فى نور الدين أن يسترد للمسلمين القدس والمسجد الأقصى بل الساحل الشامى جميعه . ويحشد حملة الصليب فى سنة ٥٤٣ جيشا كثيفا لهم فى بقعة تسمى « يَغْرى » ويسحق نور الدين محمود الجيش سحقا ذريعا ، وينشد ابن القيسرانى :

---

(١) بطوله : بفضله (٢) أصمى : أصاب

مظفَّرٌ فى دِرْعه ضَيْغَمٌ عليه تاج الملك معقودُ
وصارمُ الإسلام لاَيَنْثَنِى إلا وشِلْوُ الكفرِ مَقْدودُ[١]

ويدور العام ويحشد صاحب أنطاكية وحملة الصليب حشودهم عند حصن « إنَّب » ولقيهم نور الدين فحقهم محقا . وقُتل فى المعركة صاحب أنطاكية البرنس العاتى ، ولم يفلت من القتل إلا من خبَّر أهل أنطاكية من قومه بالاندحار والدمار . وجلجل ابن القيسرانى بصوته منشدا نور الدين على جسر الحديد الفاصل بين عمل حلب وعمل أنطاكية قصيدة رائعة استهلها بقوله :

هذى العزائم لا ما تدَّعى القُضُبُ وذى المكارمُ لاماقالت الكتبُ[٢]
أغرتْ سيوفك بالإفرنج راجفةً فؤادُ روميَّة الكبرى لها يَجِبُ[٣]
غضبتَ للدين حتى لم يَفُتْك رضًا وكان دين الهدى مرضاتهُ الغَضَبُ
من كان يغزو بلادَ الشِّرْك مكتسبا من الملوك فنورُ الدين مُحْتَسِبُ[٤]
فانْهَضْ إلى المسجد الأقصى بذى لَجَبٍ يوليك أقصى المنى فالقدسُ مرتقبُ[٥]

ولابن القيسرانى مدائح أخرى لنور الدين يردد فيها مجده وانتصاره الحربيين ضد حملة الصليب ومايأمله على يديه من رد بيت المقدس والساحل الشامى على أصحابها المسلمين . ودائما يحوطه بهالة إسلامية هو جدير بها ، فقد كان يحارب فى سبيل الله لايبتغى مغنما ، إنما يبتغى ماعند الله من الأجر والثواب ، حتى ليقول له ابن القيسرانى فى نفس هذه القصيدة السالفة .

إلا تكنْ أحدَ الأبدال فى فَلَكٍ الـ ـتُّقوى فلا نَتَمارى أنك القُطُبُ

وكأنه يعده قطب تقوى وإنقاذ للشام وأهل الشام . ولم يعش ابن القيسرانى حتى يمجد بقية انتصاراته المجيدة على الصليبيين ، إذ توفى قبله بنحو عشرين عاما سنة ٥٤٨ . وله مدائح فى بنى منقذ وفى مجير الدين أبق صاحب دمشق . ويقول العماد إنه كان له معرفة بالمنطق وعلوم الأوائل وإنه كان يتصنع للجناس أحيانا غير أن ذلك قليل فى شعره ، فقد كان يطلب فيه النصاعة والسلاسة على غرار أستاذه ابن الخياط فهو تلميذه وخريجه وراوى ديوانه .

---

(١) الشلو : العضو وبقية الشىء . مقدود : مشقوق
(٢) القضب جمع قضيب : السيف القاطع
(٣) راجفة : نفخة مميتة : يجب : يخفق
(٤) محتسب : يحتسب أجره على الله
(٥) ذولجب : الجيش . اللجب : الصياح والجلبة .

ابن[١] الساعاتى

هو بهاء الدين على بن محمد بن رستم الدمشقى خراسانى الأصل ، ولد لأبيه بدمشق سنة ٥٥٣ وكان ماهرا فى صنع الساعات الفلكية ، وأنعم عليه نور الدين محمود إنعاما وافرا حين صنع الساعات التى وُضعت على باب الجامع الأموى ، وأتاح له ذلك ثراء ، نعم به ابنه على إذ شُغف بالفروسية وببعض ضروب اللهو مثل النرد والشطرنج . ومثل لداته حفظ القرآن صبيًّا واختلف إلى دروس العلماء والمؤدبين فى الجامع الأموى ، ويبدو أن ابن سعيد خلط بينه وبين أخيه فخر الدين إذ قال إنه حين شبَّ أرسل به أبوه إلى البديع الأسْطُرْلابى بآمد ليتقن صناعة الآلات الفلكية ، وكأنه لم يلاحظ أن البديع توفى قبل ميلاده بنحو عشرين عاما . وربما أرسله إلى أحد أولاده . ونراه بعد فتح صلاح الدين لآمد يمثل بين يديه مادحا له بقصيدة لامية سنة ٥٧٩ يقول له فيها :

لولا مساعى صلاح الدين ماصلحتْ ... شمُّ الممالك بعد الزَّيْغ والمَيَلِ
فليعلمِ القدسُ أن الفتحَ منتظرٌ ... حلولَه وعلى الآفاق فَلْيَطُل[٢]

وتحققت سريعًا نبوءته بفتح القدس ، ونراه بين من حفُّوا بصلاح الدين فى موقعته الماحقة : موقعة حِطِّين على حافة طبريَّة ، وله يهنئه بهذا النصر العظيم ومانزل بحملة الصليب من ضربة قاصمة لم يفيقوا بعدها أبدًا ، إذ كُبَّت الكثرة منهم على وجوهها ، ووقع ملوكهم وصناديدهم فى أسر البطل العربى ، وله يقول :

جَلَتْ عزماتُك الفَتْحَ المبينا ... وقد قَرَّتْ عيونُ المؤمنينا
قضيتَ فريضةَ الإسلام منه ... وصدَّقْتَ الأمانى والظنونا
فألمِمْ بالسواحل فَهْى صورٌ ... إليك وألحق الهامَ المُتونا[٣]
وقلبُ القُدْس مسرورٌ ولولا ... سُطاك لكان مكتئبًا حزينا
أدرتَ على الفِرِنْج وقد تلاقتْ ... جموعهُمُ عليك رَحَى طَحُونا

---

(١) انظر فى ابن الساعاتى وشعره وفيات الأعيان لابن خلكان ٣٩٥/٣ وعبر الذهبى ١١/٥ ومرآة الزمان : ٣٧٥ والعصون اليانعة لابن سعيد ص ١١٨ وشذرات الذهب ١٣/٥ وابن أبى أصيبعة ص ٦٦١ ومقدمة ديوانه بتحقيق أنيس المقدسى (طبع المطبعة الأمريكانية - بيروت)

(٢) يطول : يفخر تيها

(٣) صور : مائلة وناظرة . الهام : الرءوس

ويذكر انتصارات صلاح الدين المتلاحقة على حَملة الصليب فى بَيْسان وغير بَيْسان ، وتتراءى له مدن الساحل الشامى ، وهى تنتظر مخلصها ومنقذها من الظلمة الأشرار ، وإن القدس ليكاد يطير فرحا فقد أصبح وشيك الخلاص ، وفعلا لم تمض شهور حتى فُتحت أبوابه لصلاح الدين وعاد ، وعاد معه المسجد الأقصى إلى الإسلام والمسلمين ، وإنه ليصيح مبتهجا فرحا :

لقد ساغ فَتْحُ القدسِ فى كلِّ منطقٍ ... وشاع إلى أن أسمع الأسَلُ الصُّمَّا[1]
فليت فتى الخطَّاب شاهدَ فَتْحَها ... فيشهد أن السهمَ من يوسفٍ أصْمَى
حَبَا مكةَ الحُسْنَى وثَنَّى بيثربٍ ... وأطرب ذَيَّاك الضريحَ وماضَمَّا
وأصبح ثَغْرُ الدينِ جذلانَ باسمًا ... وألسنةُ الأغماد تُوسعه لَثْمَا

لقد فُتح القدس عنوة ، وإن قعقعة السلاح لتكاد تسمع الصُّمَّ ، وقد عاد المسجد وعادت فيه الصلاة وتكبيرات المصلين وأذان المؤذنين . ويقرن فتح صلاح الدين للقدس فتحًا حربيًّا بفتح عمر بن الخطاب لها من قبل سلما . ويصور ابتهاج مواطن الوحى فى مكة ويثرب وابتهاج الرسول صلى الله عليه وسلم بهذا الفتح المبين ، وكيف عمت البهجة والفرحة القدس ثغر الدين ، وكأنما ألسنة الأغماد تعانقه وتقبله : تقبل كل ركن فيه . وله وراء هذه القصائد فى صلاح الدين ست عشرة قصيدة . ونراه بعد وفاته يلزم ابنه نور الدين صاحب دمشق فيمدحه بقصائد مختلفة ، غير أنه أخذ يتبرم بالشام وبمن حول نور الدين كما يتضح من قوله فى مدحة له :

أبكتْنىَ الأيامُ مذ ضحكتْ ... لى عن نيوب نوائبٍ عُصُل[2]
أفسدن خلانى فالىَ فى الـ ... سَّراء والضَّراء من خِلِّ

وكان هذا الشعور بأنه لم يعدله صديق وفىّ فى موطنه سببا فى أن يشدَّ رحاله إلى القاهرة فينزل بها ويتخذها دار مقام له حتى وفاته سنة ٦٠٤ وشعر فيها بأنه حياته أصبحت رغدة ناعمة وذكر ذلك مرارا فى شعره ، وكان قد وطد علاقاته بكثيرين من كبار رجال الدولة ، وفى مقدمتهم القاضى الفاضل وله فيه اثنتا عشرة قصيدة . وبمجرد أن وضع قدمه فى القاهرة أصبح من ندماء العزيز عثمان بن صلاح الدين حتى وفاته سنة ٥٩٥ وله فيه أكثر من ثلاثين مدحة . وربما كانت أيام العزيز أسعد أيامه بمصر . وهو يصور فى مديحه منادمته له ومجالس أنسه . وله مدائح فى السلطان

---

(١) الأسل : الرماح والسيوف .
(٢) عصل : معوجة كأنياب الأسد

العادل أخى صلاح الدين ، ولكن تنقصها الحرارة . وقد عاش بمصر يتملى بمشاهد الطبيعة وصوّر ذلك فى كثير من شعره ، وفى دار الكتب المصرية ديوان له خاص بمقطعات النيل يبدو أنه اختيارات من ديوانه ، وسنذكر بعضا من قصائده فى طبيعة دمشق وطبيعة مصر وأيضا بعضا من خمرياته .

الشهاب[1] محمود

هو محمود بن سليمان بن فهد الدمشقى الحنبلى ، ولد بدمشق سنة ٦٤٤ وعنى بتربيته أبوه وكان فقيها حنبليا ، فحفظ القرآن صبيا . وأخذ يختلف إلى حلقات الفقهاء الحنابلة والعلماء المختلفين مثل ابن مالك فى النحو وابن الظهير الإربلى فى الأدب وعليه تدرب فيه ، وكان يجلّه ويوده مودة مخلصة ، حتى إذا توفى سنة ٦٧٧ بكاه بقصيدة يقول فيها :

بكتْه معاليهِ ولم يُرَ قبلهُ كريمٌ مضى والمكْرماتُ نَوادبُهْ

وبرع محمود فى الأدب حتى فاق أقرانه مما جعل القائمين على ديوان الإنشاء فى دمشق يعيّنونه فيه وهو فى نحو الثلاثين من عمره ، وظل فيه حتى سنة ٦٩٢ إذ نقل إلى ديوان الإنشاء بالقاهرة بعد وفاة محيي الدين بن عبد الظاهر ، ورأس هذا الديوان فى عهد السلطان بيبرس البند قدارى سنة ٧٠٨ حتى إذا توفى عبد الوهاب بن فضل الله العمرى صاحب ديوان الإنشاء بدمشق نُقل إلى وظيفته هناك وظل قائما عليها حتى توفى سنة ٧٢٥ . ومعنى ذلك أنه كان أديبا كاتبا محسنا وظل يعمل بديوان الإنشاء فى دمشق والقاهرة نحو خمسين عاما . وله فى الكتابة الديوانية كتاب جيد يسمى « حسن التوسل » غير أننا رأينا أن نسلكه بين الشعراء لأنه كان شاعرا متفوقا كما كان كاتبا بارعا ، بل أهم من ذلك أنه الشاعر الشامى الوحيد الذى صور حروب الظاهر مع التتار وحروبه وحروب قلاوون وابنه السلطان الأشرف خليل مع حملة الصليب تصويرا بديعا مما جعل ابن تغرى بردى يقتصر فى أغلب الأمر على وصفه لمعارك هؤلاء السلاطين .

وأول سلطان أشاد الشهاب محمود بانتصاراته الظاهر بيبرس وكان قد علم بحشود للتتار شرق

---

(١) انظر فى الشهاب محمود وشعره فوات الوفيات لابن شاكر فى ترجمته ٥٦٤/٢ وترجمة الظاهر بيبرس ١٦٤/١ وترجمة الأشرف خليل ٣٠٥/١ والجزء السابع والثامن والتاسع من النجوم الزاهرة . انظر فهرس تلك الأجزاء والبداية والنهاية لابن كثير ١٢٠/١٤ والدرر الكامنة لابن حجر ٩٢/٥ والدارس فى تاريخ المدارس للنعيمى ٢٣٦/٢

الفرات فزحف إليهم من الشام بجيش جرار وخاض إليهم الفرات وفتك بجموعهم وكاد أن لايبقى باقية منهم . وعاد الملك الظاهر إلى دمشق مؤزرا منصورا ، وأنشده الشهاب قصيدة طنانة يقول فيها :

سِرْ حيث شئتَ لك المهيمنُ جارُ ... واحكُمْ فطَوْعُ مرادِك الأقدارُ
خُضْت الفُراتَ بسابحٍ أقصى مُنًى ... هوجُ الصَّبا من نَعْله آثارُ
حملتْك أمواج الفُرات ومن رأى ... بحرًا سواك تُقلُّه الأنهارُ [1]
رَشَّت دماؤهمُ الصعيدَ فلم يَطِرْ ... منهم على الجيش السعيد غبارُ

ولم يلبث التتار أن حشدوا جموعا لهم سنة ٦٧٥ وأيدتهم جموع من عسكر الروم ، وتعاقدوا على منازلة بيبرس ، وعلم بتلك الجموع فباغتها محيطا بها من كل جانب ، وقاتلت قتال الموت ولم يغن ذلك عنها شيئا ، إذ كان يقتحم مع جنوده البواسل الأهوال كالأسد الضارية إلى أن انكسر التتار والروم وفروا معتصمين بجبال وراءهم ، وأحاطت بهم العساكر المصرية وقتلت منهم مقتلة عظيمة وفى ذلك يقول الشهاب محمود :

كذا فلتكنْ فى الله تمضى العزائمُ ... وإلا فلا تجفو الجفونَ الصوارمُ [2]
بجيشٍ تظل الأرضُ منه كأنها ... على سعة الأرجاء فى الضيق خاتمُ
يحيط بمنصورِ اللواء مظفَّرٍ ... له النصر والتأييد عبدٌ وخادم
مليكٌ به للدين فى كل ساعةٍ ... بشائر للكفار منها مآتمُ
مليكٌ لأبكار الأقاليم نحوه ... حنينٌ كذا تهوَى الكرامَ المكارمُ

وسنذكر فى جزء مصر أن الظاهر بيبرس استولى على كثير من بلدان حملة الصليب وحصونهم مثل قَيْسارية وصَفد والرملة ويافا وأنطاكية مزيلا منها مملكتهم ، ولم يدوِّن ابن تغرى بردى شيئا من شعر الشهاب محمود فى هذه الفتوح الضخمة . ويسير السلطان قلاوون سيرة الظاهر فى منازلة الصليبيين ، ويستولى على طرابلس مملكتهم الثالثة التى أسسوها بعد مملكة بيت المقدس ، وبذلك تكون جميع ممالكهم التى شادوها سقطت من قواعدها ولم يبق فى أيديهم إلا عكا وصور وصيداء

---

(١) تقله : تحمله
(٢) جفن السيف : غمده . الصوارم جمع صارم : السيف القاطع

وبيروت وبعض حصون قليلة ، ولم يلبث قلاوون أن استولى منهم على حصن المرقب ، ومجَّد فتوحه الشهاب محمود قائلا .

اللهُ أكبرُ هذا النَّصرُ والظَّفَرُ هذا هو الفتح لامانزعم السَّيَّرُ
هذا الذى كانت الآمال إن طمحتْ إلى الكواكب ترجوه وتنتظر
فانْهَضْ وسِرْ واملك الدنيا فقد نَحلَتْ شوقا منابرُها وارتاحتِ السُّرُر[1]
إن لم يُوَفِّ الوَرى بالشكر مافتحتْ يداك فاللهُ والأملاك قد شكروا

وخلف قلاوون ابنه « السلطان الأشرف خليل » ، وكان بطلا شجاعا مقداما وكان مخوف السطوة قوى البطش ، وبمجرد أن استهلت سنة ٦٩٠ بعد جلوسه على عرش السلطنة بقليل تأهب لحصار عكا ، فجمع الصناع لعمل آلات الحصار وخرج بعساكره من الديار المصرية حتى أحاط بعكا فى شهر ربيع الآخر ، وكان المتطوعون أكثر من الجند ونصب عليها المجانيق ، ولم يلبث أن زحف عليها بجيشه الجرار ودخلها بعد قتال عنيف . وطلب حملة الصليب البحر المتوسط فتبعتهم الجنود الإسلامية تقتل وتأسر فلم ينج منهم إلا القليل . وعَصَى الداويَّة والإسْبتاريَّة فى أول الأمر معتصمين بأبراج عالية ، غير أنهم اضطروا إلى التسليم ، ومن غريب الصدف أنَّ فتحها تم فى السابع عشر من جمادى الأولى سنة ٦٩٠ بالساعة الثالثة من النهار فى نفس الموعد الذى كانت قد سقطت فيه بيد حملة الصليب سنة ٥٨٩ . وفى هذا الفتح المبين ينشد الشهاب محمود قصيدة بديعة مهنئا « الأشرف خليل » مفتتحها لها بقوله :

الحمد لله ذَلَّتْ دولةُ الصُّلُبِ وعزَّ بالترك دينُ المصطفى العربى
هذا الذى كانت الآمالُ لو طلبتْ رُؤياه فى النوم لاستحيتْ من الطلب
مابعد عَكَّا وقد هُدَّت قواعدُها فى البحر للشرك عند البرِّ من أَرَبِ[2]
لم يَبْقَ من بعدها للكفر مذ خَرِبَتْ فى البحر والبر مايُنْجى سوى الهرب
يايومَ عكا لقد أنسيتَ ماسبقتْ به الفتوحُ وما قد خُطَّ فى الكتب
بُشْرَاك يا ملكَ الدنيا لقد شرفتْ بك الممالكُ واستعلتْ على الرُّتب

وتفتح أبوابها مدينة صور لجند السلطان ويسلمها إليهم حملة الصليب وتليها مدينة صيداء

---

(١) السرر : جمع سرير : العرش
(٢) أرب : مطلب وأمنية

وقلعة جُبَيْل وعثليث وأنْطرطوس وبيروت . ويدور العام ويستولى الأشرف على بقية حصونهم ويمد فتوحه إلى الشرق ويستولى على قلعة الروم غربى الفرات ، وبهنئه الشهاب محمود بهذا النصر المتوالى قائلا من مدحة طويلة .

وفتحٌ بَدَا فى إثْر فتحٍ كأنما سماءٌ بدتْ تَتْرَى كواكبُها الزُّهْرُ

وعلى هذا النحو سجَّل الشهاب محمود فتوحات السلاطين الثلاثة : الظاهر بيبرس وقلاوون وخليل تسجيلا رائعا . وله وراء هذه المدائح الحماسية مدائح نبوية جمعها فى ديوان سماه : « أهنا المنائح فى أسنى المدائح » وهو مفقود ، وسننشد له قطعا فى حديثنا عن شعراء التصوف والمديح النبوى .

منجك[1] بن محمد بن منجك

شركسى دمشقى نشأ فى بيت نعمة ، فكان أميرا ابن أمير . ولد سنة سبع بعد الألف للهجرة وتوفى سنة ١٠٨٠ ونشأ مثل لداته الدمشقيين يعنى بالعلم والتعليم ، فحفظ صغيرا القرآن الكريم ، حتى إذا شبَّ عن الطوق أخذ يختلف إلى علماء دمشق ، آخذا القراءات على الشيخ عبد الرحمن العمادى والحديث النبوى عن الشيخ الشهاب أحمد الوفائى ، وأبى العباس المقرى . أما الأدب الذى شُغف به منذ نشأته فقد أخذه عن أحمد بن شاهين . وكان كريما مسرفا مبالغا فى إسرافه ، فأنفق ماخلَّفه له أبوه ، حتى إذا تَرِبَتْ يداه وضاقت به دنياه ولَّى وجهه نحو إستانبول ، ولكنه لم يحقق فيها ماكان يأمله فعاد إلى دمشق ، ولم يلبث أن خالط أصدقاءه القدماء . وله ديوان شعر جمعه فضل الله المحبى والد صاحب خلاصة الأثر فى أعيان القرن الحادى عشر بأمر من مفتى الدولة العثمانية : حسام زاده ، وله فيه مدائح كثيرة . وديوانه يحمل كثيرا من المدائح والغزليات والخمريات ، وأكثر مدائحه فى الفقها والعلماء من شيوخه وغير شيوخه ، وفى مقدمة من مدحهم شيخه فى القراءات عبد الرحمن مفتى دمشق وفيه يقول :

تَنْدَى أناملُه ويُشرقُ وَجهُهُ فيجودُ بالآلاء واللُّألاء
يقظٌ لأعقاب الأمور كأنما جُلِيَتْ عليه حقائقُ الأشياء

(١) انظر فى منجك ريحانة الألبا طبعة عيسى الحلبى ٢٣٢/١ وخلاصة الأثر ٤٠٩/٤ ونفحة الريحانة ، وقد طبعت المطبعة الحنفية بدمشق مختارات من ديوانه باسم ديوان منجك .

ومهابةٌ سادَ الولاة ولاؤها محفوفـــةٌ بجلالـــةٍ وبهاء
وشمائلٌ رقَّتْ كما خطرتْ على زَهْر الربيع بواكرُ الأنداء

والصياغة رصينة جزلة ، والألفاظ مختارة منتخبة . والمعانى مكررة فى المديح التقليدى ، غير أن الشاعر يحاول أن يخرجها إخراجا طريفًا على نحو مايتضح فى البيت الأول الذى جمع فيه بين الكرم والبشر المترقرق فى وجه الممدوح ، وبذلك جعله يجود بالآلاء والنعم كما يجود بالألاء الوجه وإشراقه ومايجرى فيه من بشر بهيج . والجناس بين الآلاء واللألاء جناس بديع . وواضح كيف لاءم فى البيت الثانى بين معناه وبين الممدوح وكان مفتيا لدمشق ، فوصفه بالفطنة ودقة الحدس ، وبالمثل البيت الثالث وماجمع فيه بين المهابة والجلالة والبهاء مع حسن الصياغة . وقل ذلك نفسه فى البيت الرابع فشمائل المفتى رقيقة عطرة كزهر الربيع باكرته النسائم والأنداء .

وولىَ القضاء فى دمشق والشام حسام زاده قبل توليه منصب الإفتاء فى الدولة العثمانية وعم فضله وبرُّه أدباءها ، وله ألف البديعى كتابيه : « هبة الأيام فيما يتعلق بأبى تمام » و « الصبح المنبى فى الكشف عن حيثية المتنبى » ويقول منجك فى تهنئة له بالعيد :

آلى الزمانُ عليه أن يُوَاليكا يُثنِى عليك ولا يأتى بثانيكا
إذا سَطا فبأحكامٍ تنفِّذها وإن سَخَا فبفَضْلٍ من مساعيكا
من ذا يُضاهيك فيما حُزْتَ من شرفٍ وَمَنْ يُدانيك فى حِلْمٍ ويَحْكيكا
أعيادُنا كلُّها يومٌ نراك بهِ وليلةُ القَدْرِ وَقْتٌ من لياليكا

والملاءمة بين معانى الأبيات ومنصب المفتى – وكان حينئذ قاضيا بدمشق – واضحة ، والمبالغة واضحة فى البيت الأول ، ولكن الشاعر خففها بالجناس بين « يثنى وثانيكا » وعاد إليها بقوة فى البيت الأخير ، وكان يكفيه أن تكون أيام لقائه للقاضى أعيادا ، ولكنه أبى إلا المبالغة المسرفة إذ جعل ليلة القدر وقبول الدعاء بها ممن يحظون برؤيتها وقتٌ من ليالى الشيخ . ولاريب فى أن صياغته ناصعة ، وأنه يغلب على شعره السلاسة ، مع مايوشيه به من جناس وطباق كما فى البيت الثانى . ودائما محسنات البديع عنده مقبولة ، وقلما يمازجها الثقل والتكلف . وله مدحة فى أستاذه المقرى – وهو صاحب نفح الطيب – ويذكر أنه قرأ عليه كتاب « الشفا » وهو فى مدح المصطفى سيد المرسلين ، وتموج المدحة بإجلاله لعلمه وتقواه ، يقول :

يقضى النهارَ بآراءٍ مسدَّدةٍ ويَقْطع الليلَ تسبيحًا وقرآنا

وتلقانا وراء مدائحه فى الديوان وعند من ترجموا له ألغاز ، ومعروف أن الشعراء كانوا قد أخذوا يتلاعبون بها منذ القرن الخامس الهجرى ، وكثرت زمن المماليك والعثمانيين . وله غزليات وخمريات بديعة ، سنذكر منها بعض أبيات فى غير هذا الموضع .

٥

شعراء الفلسفة والحكمة

تشيع الحكمة فى الشعر العربى منذ العصر الجاهلى على نحو مانجد عند زهير ، فقد ضمن معلقته طائفة كبيرة من الحكم ، وكأنهم أرادوا أن يصوروا لمعاصريهم خبرتهم بالحياة وإدراكهم لتجاربها حتى ينتفعوا بذلك أكبر نفع فى فهم شئون الدنيا وشئون الناس وأحوالهم فى سلوكهم . ومضى الشعراء بعد العصر الجاهلى يحاكون الجاهليين فى تغذية أشعارهم بتلك الحكم ، حتى إذا كان العصر العباسى أخذ الشعراء يضيفون إلى تراثهم من الحكم عنادا جديدا من حكمة الفرس والهنود واليونان ، وأخذ النابهون منهم يعتمدون على عقولهم الخصبة فى استخلاص الحكم من خبراتهم بأحوال الدنيا والناس ، حتى ليبلغ بعضهم من ذلك أن تُحْصَى حكمه بالعشرات ، بل أحيانا بالمئات على نحو ماعرف عن أبى تمام الشاعر الدمشقى ، فقد أحصى بعض البلاغيين حكمه فوجدها ثلاثمائة وأربعة وخمسين بيتا سوى تسعين شطرا . وعاش المتنبى أكثر سنوات عمره فى الشام وباديها وقد بلغ الذروة فى تضمين مدائحه حكما رائعة ، وأحصاها البلاغيون ، فوجدوها أربعمائة ، سوى مائة وثلاثة وسبعين شطرا . ولكثرة مايتناثر فى شعره من حكم أفردها بعض الأسلاف بالتأليف ، وحاول بعض النقاد الوصل بينها وبين حكم أرسطو ، وهى مبالغة مفرطة فى التصور إذ أكثر حكمه من ثمار خبراته بالحياة خبرة فذة . وظل شعراء الشام يستظهرون – بعد المتنبى وأبى تمام – الحكم فى جوانب من أشعارهم ، ولم تلبث الشام أن أهدت إلى الشعر العربى حكيما وفيلسوفا كبيرا ، هو أبو العلاء المتوفى سنة ٤٤٩ وسنترجم له عما قليل .

وكان الطُّغْرائى قد لمع اسمه بنظمه لامية العجم ، وقد صاغها جميعا حكما وأمثالا على طريقة مزدوجة أبى العتاهية التى سماها ذات الأمثال ، والتى ضمنها أربعة آلاف مَثَل . ولامية الطغرائى لاتبلغ مبلغها فى حشد آلاف من الأمثال ، وليست من بحر الرجز وإنما هى من البسيط على شاكلة نونية البُسْتى المشهورة . وقد أصبح تقليدا عند كثير من شعراء الشام وغيرهم أن يخصوا بعض

قصائدهم برصَفْ طائفة من الأمثال والحكم ، ولابن منير الطرابلسى قصيدة من هذا الطراز يقول فيها[١] :

وإذا الكريمُ رأى الخمولَ نزيلَهُ ... فى منزلٍ فالحزمُ أن يترحلا
كالبدر لما أن تضاءلَ جَدَّ فى ... طلب الكمال فحازه متنقِّلا
سَفَهًا لحلمك أنْ رضيتَ بمَشْرَبٍ ... رَنِقٍ ورزقُ الله قد ملأ المَلا
فارقْ تُرُقْ كالسيف سُلَّ فبان فى ... مَتْنَيْه ماأخفى القِرابُ وأخملا
للقَفْر لا للفقر هَبْها إنما ... مَغْناك ماأغناك أن تتوسَّلا

وهى أمثال وحكم يراد بها النصح لسلوك الشخص الكريم على نفسه فى الحياة . فلا يرضى بمنزل هون ، بل يرحل ويتنقل ، فكمال البدر وعز الشخص فى تنقله . ويزجر من يرضى المشرب الكدر ورزق الله قد طبق الملاأوالأرض وملأها بالطيبات ، وهل يقطع السيف إلا بعد أن يُسَلَّ من قرابه أو غمده ، وعار مابعده عار أن يتضرع الشخص ويتذلل لإنسان مثله ، ولأن يركب القفرَ المجدب الخرابَ خيرٌ من أن يقف بباب .

ودائما تلقانا هذه الحكم فى تضاعيف قصائد الشعراء ومقطوعاتهم ، وفى كتاب طبقات الأطباء لابن أبى أصيبعة منها طائفة جرت على ألسنة أطباء الشام ، ويلقانا منها أيضا منثورات فى كتب التاريخ كقول الشيخ شمس الدين الحمصى[٢] :

الدهرُ كالطيف بُؤساه وأنْعمُهُ ... عن غير قَصْدٍ فلا تَحْمد ولاتَلُمِ
لاتسألِ الدهرَ فى البأساء يَكْشفها ... فلو سألتَ دوامَ البؤس لم يدم

فكل شىء حائل وزائل ولادوام لضر أو نفع ولالبؤس أونعيم ، ولادخل لدهر فى شىء من ذلك ، ولايأس مع رحمة الله فلا بؤس يدوم ولاضر يدوم . وربما كانت أروع قصيدة من قصائد هذه الامثال والحكم فى العصر المملوكى قصيدة عمر بن الوردى المتوفى سنة ٧٤٩ للهجرة وهى فى أكثر من سبعين بيتا . وفيها يقول[٣] :

---

(١) ابن خلكان ١٥٦/١
(٢) النجوم الزاهرة ٣٤٥/٧
(٣) الكشكول لبهاء الدين العاملى (طبعة عيسى البابى الحلبى) ٣٠٦/١

اعتزلْ ذكرَ الأغانى والغزلْ. وقِلِ الفَضْلَ وجانبْ مَنْ هزلْ
واتَّقِ اللهَ فتَقْوى الله ما مازجتْ قلبَ امرئ إلا وَصَلْ
قاطعِ الدنيا فمن عاداتها تخفض العالى وتُعلى مَنْ سَفَلْ
لاتَقُلْ أصلى وفَصْلى أبدا إنما أصلُ الفتى ماقد حَصَلْ
مِلْ عن النمَّام واهْجُرْهُ فما بلَّغ المكروه إلا مَن نَقَلْ

والقصيدة جميعها على هذه الشاكلة حكم وأمثال ونصائح غالية وكأنها أعلام تهدى الإنسان فى سلوكه الطريق القويم . ويظل الشعراء بعد ابن الوردى ينظمون مثل هذه الحكم أيام المماليك وأيضا أيام العثمانيين ، إذ نقرأ لبعض الشعراء حكما وأمثالا منثورة فى أشعارهم وتراجمهم ، كقول حسين بن أحمد الجزرى الحلبى المتوفى سنة ١٠٣٤ للهجرة[١] :

حاذِرْ عِداك الأقربين من الورَى فأضرُّها القُرَباءُ والقُرَناءُ
وتوقَّ من كيْد الحقود ولينِ ما يُبْدى فقد يُصدى الحسامَ الماءُ

ويذكر ابن معصوم لشاعر يسمى نجيب الدين على بن محمد العاملى رحلة أودعها أشعارا على طريقة ديوان الصادح والباغم لابن المَّارية ومافيه من حكم ومعان خلقية تهذيبية ، ويسوق ابن معصوم طائفة من حكمه كقوله[٢] :

المرء لايسلم من حاسدٍ أوشامتٍ فى اليُسْر والعُسْرِ

وتكثر الحكم أيضا فى كتاب نفحة الريحانة للمحبى ، وهى من قديم كثيرة فى الشعر العربى كما أسلفنا . وحرى بنا أن نقف قليلا عند أبى العلاء أكبر شعراء الحكمة والفلسفة لافى الشام وحدها بل فى العالم العربى جميعه . ونتلوه بكلمة عن منصور بن مسلم .

---

(١) ريحانة الألبا ١/١٢٢ (٢) سلافة العصر لابن معصوم ص ٣١٠

أبو العلاء[1] المعرِّىّ

هو أحمد بن عبد الله بن سليمان التَّنوخى ، ولد فى ربيع الأول سنة ٣٦٣ للهجرة فى بلدة تسمى « مَعَرَّة النعمان » من أعمال حمص بين حلبْ وحماة ، وإليها ينسب ، واشتهر بكنيته « أبى العلاء » وفى ذلك يقول :

دُعيتُ أبا العلاء وذاك مَيْنٌ ولكنَّ الصحيحَ أبو النُّزولِ

وأسرته تنحدر من قبيلة تَنوخ إحدى القبائل العربية الجنوبية ، وما إن بلغ الرابعة من عمره حتى اعتلَّ علة الجدرى وذهب فيها بصره ، وكان يقول : « لاأعرف من الألوان إلا اللون الأحمر لأنى أُلْبستُ فى الجُدرىّ ثوبا مصبوغا بالعُصْفُر ، لاأعقل غير ذلك » . وكان بيته بيت قضاء وعلم وشعر ، إذ ظل قضاء المعرة طويلا فيهم ، وألم بهم ياقوت فى ترجمته له بمعجم الأدباء وذكر لهم طرائف من أشعارهم . وطبيعى أن يقتدى بهم فيُكبَّ بعد حفظه القرآن على كتب الدين الحنيف واللغة . وأيضا فإن فقده لبصره مبكرا جعله يُعْنَى بطلب العلم . وتتلمذ على أبيه أولا ومَنْ فى بلدته من تلامذة ابن خالويه ، ولم يلبث حين أخذ ماعندهم جميعا أن رحل إلى حلب وحضر على علمائها وعاد منها وهو فى نحو العشرين من عمره سنة ٣٨٤ . وحين بلغ الثلاثين من عمره سأل ربه إنعاما ، ورزقه صوم الدهر ، فلم يفطر فى السنة والشهر إلا فى العيدين .

ورحل إلى بغداد فى أواخر سنة ٣٩٨ وبقى بها نحو سنة وسبعة أشهر ، وكان من أسباب عودته منها سريعا نشوب خصومة بينه وبين المرتضى العلوى أخى الشريف الرضى بسبب تعصبه للمتنبى ، وأيضا كان قد وصله خبر بمرض أمه ، فعاد عجلا ، ووجدها قد لبَّت نداء ربها . وأخذ نفسه منذ

---

(١) انظر فى ترجمة أبى العلاء وشعره معجم الادباء ١٠٨/٣ وتعريف القدماء بأبى العلاء (طبع دار الكتب المصرية) وفيه كل ما كتب عنه تقريبا فى المراجع القديمة ومن أهمه رسالة الإنصاف والتحرى فى دفع الظلم والتجرى عن أبى العلاء المعرى لابن العديم الحلبى وهى دفاع قوى عنه ونفى لما قيل من إلحاده . وانظر فيه كتاب تجديد ذكرى أبى العلاء لطه حسين (طبع دار المعارف) وتاريخ الأدب العربى لبروكلمان (طبع دار المعارف ٣٥/٥ وكتبنا : كتاب الفن ومذاهبه فى الشعر العربى (الطبعة العاشرة) ص ٣٧٦ والفن ومذاهبه فى النثر العربى ص ٢٦٥ وفصول فى الشعر ونقده ص ١٠٧ وترجمته فى دائرة المعارف الإسلامية ومطالعات لعباس محمود العقادص ٧٠ وأبو العلاء المعرى للدكتورة عائشة عبدالرحمن ومقدمتها لتحقيقها لرسالة الغفران . وطبع له سقط الزند بشروح مختلفة واللزوميات ورسالة الغفران والصاهل والشاحج ورسائله بتحقيق الدكتور عبد الكريم خليفة وكذلك بتحقيق الدكتور إحسان عباس . وانظر الحضارة الإسلامية لميتز ١١٠/٢ .

هذا التاريخ فى سنة ٤٠٠ بحياة زاهدة خشنة ملازما داره وبلدته لايبرحها ، وإلى ذلك يشير بقوله :

أرانى فى الثلاثة من سجونى فلا تسألْ عن الخبرِ النَّبيثِ [1]
لفقدى ناظرى ولزومِ بيتى وكَوْنِ النفسِ فى الجسمِ الخبيثِ

ثلاثة سجون أحاطت قضبانها به : سجن روحه فى جسده وسجن داره وسجن فقده لبصره ، وظل يفرغ نحو خمسين عاما لنظم زومياته ولتأليف كتبه الكبرى ، ومر بنا أن حلب تبعت مصر منذ سنة ٤٠٧ إلى سنة ٤١٥ وكان أول ولاتها للحاكم بأمر الله الفاطمى عزيز الدولة فاتك الوحيدى وله ألف أبو العلاء كتاب الصاهل والشاحج متحدثا فيه على لسان فرس وبغل ، وقد حققته الدكتورة عائشة عبد الرحمن ونشرته دار المعارف ، ويقول ابن العديم إنه ألفه لفاتك بسبب حق على بعض أقربائه . وله أيضا صنع كتابه « القائف » وهو أمثال على طريقة كليلة ودمنة ، ولم يكد يتم الجزء الرابع منه حتى توفى فاتك سنة ٤١٣ فعدل عن إتمامه . وولى حلب بعد فاتك سَنَد الدولة الكُتامى سنة ٤١٤ وقدَّم له أبو العلاء الرسالة السَّنَدية فى مجلد واحد .

واعتقل صالح بن مرداس أمير حلب فى سنة ٤١٨ سبعين رجلا من المعرَّة هم مشايخها وأماثلها ، واجتاز صالح بالمعرة ، فخرج إليه أبو العلاء شافعا فيهم فقال له صالح : « قد وهبتهم لك أيها الشيخ » . وعاد إلى داره وهو ينشد :

بُعثتُ شفيعا إلى صالحٍ وذاك من القوم رأىٌ فَسَدْ
فيسمع منِّىَ سَجْعَ الحمامِ وأسمع منه زئيرَ الأسَد

ومنذ حبس نفسه فى داره أصبح ملاذًا لطلاب العلم فى العالم العربى ، فهم يغدون عليه ويروحون يأخذون عنه كتبه وشروحها ، وبالمثل دواوينه وشروحها ، وكثيرا من كتب اللغة وفى مقدمتها كتاب غريب الحديث لأبى عبيد القاسم بن سلام غير كتب لغوية أخرى كثيرة . ويقول ابن فضل الله العمرى : « أخذ عن أبى العلاء خلق لايعلمهم إلا الله عز وجل ، كلهم قضاة وأئمة وخطباء وأهل تبحُّر وديانات .. وكان له أربعة من الكتَّاب المجوِّدين يكتبون عنه مايكتبه إلى الناس ومايمليه من النظم والنثر والتصانيف والإجازات والسماع لمن يسمع منه ويستجيزه » . وعقد ابن العديم فى كتابه عنه المسمى « الإنصاف والتحرى » فصلا ذكر فيه مشاهير تلاميذه .

---

(١) النبيث : الخبيث .

وكان أبو العلاء آية خارقة فى الذكاء وقوة الحافظة حتى قالوا إنه كان يلعب النرد والشطرنج ، وإذا سمع حديثا بلغة غير العربية حفظه بحذافيره ، وقد تحول يعبُّ وينهل من ثقافات عصره حتى استوعبها جميعا سواء المترجم عن اليونانية من فلسفة وغير فلسفة ، أو المترجم عن الفارسية والهندية فكل ذلك مضافا إلى الثقافتين : الإسلامية والعربية تمثَّله أبو العلاء تمثلا حيًّا خصبا ، يرفعه إلى أعلى منزلة ، يتمثَّل صاحبها التراث الإنسانى جميعه .

ومنذ سنِّ الثلاثين اختار لنفسه صوم الدهر ماعدا أيام الأعياد كما أسلفنا ، واختار لنفسه معه حياة زاهدة ، وذكر ذلك فى شعره إذ قال إن طعامه العدس والتين أو كما يسميهما البلسن والبلس رافضًا ماوراءهما من طيبات الطعام ولذائذه ، إذ يقول :

يقنعنى بُلْسُنٌ يُمارَسُ لى فإن أتتنى حلاوةٌ فَبَلَسْ

ويقول ناصر خسرو فى رحلته المسماة « سفرنامه » إنه زاره سنة ٤٣٨ فوجده فى سعة من العيش مما جعل بروكلمان يشك فى أنه عاش معيشة زاهدة . وهو قول مدفوع بإجماع من ترجموا له من القدماء : أنه كان يعيش معيشة زهد وتقشف ، حتى لنرى القفطى – وهو أحد من تحاملوا عليه ورموه بالإلحاد – يقول : لم يكن أبو العلاء من ذوى الأموال ، وإنما خُلِّف له وقف يشاركه فيه غيره من قومه ، وكانت له نفس تشرف عن تحمل المِنن ، فمشى حاله على قدر الموجود ، فاقتضى ذاك خشِن الملبوس والمأكل والزهدَ فى ملاذ الدنيا ، وكان الذى يحصل له فى السنة مقدار ثلاثين دينارا قدَّر منها لمن يخدمه النِّصف ، وأبقى النصف الآخر لمئونته ، فكان أكله العدس – إذا أكل – مطبوخا وحلاوته التين ، ولباسه خشن الثياب من القطن وفرشه من لباد (صوف) فى الشتاء وحصيرة من البَرْدِىّ فى الصيف ، وتَركَ ما سوى ذلك » . وربما كان هذا الدخل القليل من أسباب تركه لأكل اللحم ومستخرجاته من البيض واللبن ، لا أخذًا بمذاهب الحكماء ولاتباعا لمذهب البراهمة الهندى ، كما قيل ، بل لضيق ذات يده وإشفاقا على الحيوان ، ولعله صنع ذلك مبالغة فى الزهد ورفض طيبات الحياة .

وكان أبو العلاء يحسّ بعمق آلام الإنسان فى دُنْياه ، ولعل ذلك ماجعله يعزف عن الزواج حتى لايرزق بولد يكابد من دنياه ماكابده وصرَّح بذلك قائلا :

هذا جناهُ أبى علـــــىَّ وما جنيتُ على أحَدْ

ويقال إنه أوصى بكتابة هذا البيت على قبره حين أوشك على مفارقة الدنيا فى سنة ٤٤٩ . وله

رسائل كثيرة جمع منها أخيرا الدكتور عبد الكريم خليفة رئيس مجمع اللغة العربية الأردنى نحو أربعين رسالة ، ونشرها فى ثلاث مجموعات ، بدأها بالرسالة المنيحية التى أرسل بها إلى الوزير البغدادى أبى القاسم المغربى وتلاها بالرسالة الإغريضية المرسلة إلى الوزير نفسه . ويبدو أنه أرسل بالرسالتين إليه بعد فراره لعهد الحاكم بأمر الله من مصر ، وسنعرض لهذه الرسائل فى غير هذا الموضع . ولأبى العلاء أيضا رسالة الملائكة وهى فى مسائل التصريف ، طُبعت قديما بالقاهرة . ورسالة الغفران له مشهورة ، وسنلم بها وبكتابه الفصول والغايات فى حديثنا عن النثر . وله « ملقى السبيل » فى الوعظ والزهد ، وهو فيه يصوغ المعنى نثرا ثم يصوغه شعرا . وله ديوان صغير سماه الدَّرعيات وهو أشعار فى وصف الدروع ، وقد طُبع ملحقا بديوانه الكبير سَقْط الزَّنْد .

ونقف قليلا لنتحدث عن السقط ثم عن ديوانه الكبير الثانى اللزوميات ، والسَّقط أول مايخرج من نار الزند وشَرَره ، سمى أبو العلاء ديوانه الأول بهذا الاسم إشارة إلى أنه أول مانظم وسمح به خاطره فشبهه بالسقْط . وهو يجمع شعر الصبا ومنه قصيدة نظمها فى رثاء أبيه وهو فى الرابعة عشرة من عمره وشعر الشباب وبعض شعر له فى الكهولة ومنه قصيدة نظمها فى رثاء أمه وأخرى أرسل بها شاكرا مثنيًا إلى خازن دار العلم ببغداد . وشرح أبو العلاء هذا الديوان وسمىّ شرحه « ضو السقط » وقد طُبع فى مصر قديما . وطَبعتْ دار الكتب المصرية الديوان ومعه ثلاثة شروح : شرح لتلميذه التبريزى وشرح لأبى محمد البطليوسى الأندلسى وشرح لأبى الفضل قاسم الخوارزمى ، وهو فى خمس مجلدات كبيرة . والديوان يكتظ بالمديح والرثاء والفخر والنسيب والوصف وأكثره فى المديح ، وجمهوره فى مديح أشخاص خياليين ، وذكر ذلك فى مقدمته قائلا « لم أطرق مسامع الرؤساء بالنشيد ولامدحت طلبا للثواب وإنما كان ذلك على معنى الرياضة وامتحان السُّوس (الطبع) فالحمد لله الذى ستربغُفَّة (بُلْغَة) من قوام العيش » . ونفس ممدوحيه القليلين لم يوجِّه إليهم مديحه – كما قال – طلبا للثواب أو النوال وإنما هم بعض أصدقائه كتبوا إليه فرأى أن يجيبهم شعرا ، وربما مدحهم شاكرا صنيعا لهم على نحو ماذكرنا من ثنائه على خازن دار العلم ببغداد واصفا عونه الحميد له فى أثناء تردده على تلك الدار ومكتبتها الكبرى المشهورة . وطبيعى أن يخلو هذا الديوان من الهجاء والخمريات ووصف الصيد . وهو فى الديوان – بعامة – يحاكى المتنبى ، وكان يرفعه فوق جميع الشعراء ، وشَرح ديوانه وسمَّاه معجز أحمد بينما سَمَّى شرحه لديوان أبى تمام : « ذكرى حبيب » وشرحه لديوان البحترى « عبث الوليد » ويفجؤنا فى الديوان فخر عنيف على نحو مانقرأ فى قصيدته :

ألا فى سبيل المجد ماأنا فاعل عفافٌ وإقدامٌ وحزمٌ ونائلُ
وإنى وإن كنت الأخيرَ زمانُه لآتٍ بما لم تستطعه الأوائلُ

وهذا الصوت القوى المفاخر المباهى بالمجد والعبقرية يكاد يختفى بعد ذلك من الديوان ، إذ يعود أبو العلاء إلى صوته الحقيقى : صوت اليأس من الناس والحياة والمعرفة بالدهر وتصاريف أيامه ولياليه . وهو يذكر الليل وظلمته كثيرا ، ولعل ذلك بسبب فقده لبصره ، وأيضا بسبب تشاؤمه وماحمل من أثقال الدنيا دون أن يجد معينا . وقد شكا كثيرا من أنه لايجد فى الدنيا صديقا ولاأخا يُصْفيه الوداد ، مع كثرة بغضه للانفراد ، حتى ليقول :

ولو أنّى حُبِيتُ الخُلْدَ فَرْدًا لما أحببتُ بالخُلْد انفرادا
فلا هطلتْ عَلىَّ ولا بأرضى سحائبُ ليس تنتظمُ البلادا

ويبالغ أبو العلاء فى سوء ظنه بالناس فى نفس هذه القصيدة الدالية ، فيقول إن الجوزاء منزل عُطارد المنسوب إليه السِّلْم لو خبرت الناسَ خبرته وبلاءه وجرَّبتْ من كيدهم ماجرَّب وعرفت من خُبْث سرائرهم ما عرف لما طلعت عليهم ليلا ولاتراءت لهم مخافة أن يصل إليها كيد من كيدهم ، يقول :

فظُنَّ بسائرِ الإخوان شرًّا ولا تأمنْ على سِرٍّ فُؤادا
فلو خبرتْهم الجَوْزَاءُ خُبْرِى لما طلعتْ مخافةَ أن تُكادا

ومضى يخفف حدة التشاؤم الأسود المعتم ببروق كثيرة من الفخر ، فمكانه فى السؤدد فوق السموات السبع رفعة وعلاء ، وإنه ليفلُّ نوائب الأيام وكوارثها وحده بقوته ومَضائه .

وفى رأينا أن أروع قصائد أبى العلاء فى سقط الزند مراثيه لأنها تَفْصل من ذات نفسه ومن أهمها مرثيته لصديقه الفقيه .

غير مُجْدٍ فى مِلَّتى واعتقادى نوحُ باكٍ ولاترنُّمُ شادى
وشبيهُ صوتُ النَّعىِّ إذا قيـ ـسَ بصوت البَشيرِ فى كل نادى

وواضح أنه يقول فى مطلعها إن البكاء الحزين كالغناء الفرح دلالتهما واحدة ، إذ سرعان ماتتحول البشارة بالمولود – مهما طالت حياته – صراخا عليه ، حتى لكأن الصوتين متشابهان أو مختلطان اختلاط شجو الحمامة فلا يدرى السامع أتبكى محزونة أم تغنى مبتهجة . ويمضى

أبو العلاء فى مثل هذه الأفكار العميقة طالبا من قارئه أن يخفف من وَطْء أقدامه على الأرض ، لأن ترابها من أديم آبائه وأجداده ، وكأن الأرض مقبرة كبرى ، وكم من لحدٍ فيها يضحك من تزاحم الأضداد فيه بين صالح وطالح . ولايلبث أن يقول إن الحياة كلها تعب وعناء وشقاء لاضفاف له ، وإن الحزن على الميت والفجيعة فيه لأضعاف السرور ساعة ميلاده . ولأبى العلاء مرثية ثانية يرثى بها صديقا من أبناء عمومته ، وهى تكتظ بالحكم من مثل قوله :

لو عرفَ الإنسانُ مقدارَهُ لم يَفْخَرِ المولى على عَبْدِهِ
أضْحَى الذى أُجِّلَ فى سِنِّهِ مثلَ الذى عُوجل فى مَهْدِهِ
ولا يبالى المَيْتُ فى قبرِهِ بِذمِّه شُيِّع أم حَمْدِهِ
والواحدُ المُفْرَدُ فى حَتْفِهِ كالحاشد المكثرِ فى حَشْدِهِ
ورُبَّ ظمآنَ إلى مَوْرِدٍ والموتُ لو يعلم فى وِرْدِهِ

وديوانه الثانى اللزوميات أو لزوم مالايلزم هو الأهم لأنه يحمل فلسفته أو تفكيره الفلسفى بجميع أسسه وشعبه ، وقد تكلف فيه – كما يقول فى مقدمته – ثلاث كلف : الأولى أنه ينتظم حروف المعجم جميعها ، والثانية أن رويَّه يجىء بالحركات الثلاث ثم بالسكون ، والثالثة أنه التزم مع كل روى فيه شيئا لايلزم من باء أوتاء أو غير ذلك من حروف . وقد أوضحنا فى كتابنا « الفن ومذاهبه فى الشعر العربى أنه أضاف إلى هذه الكلف الثلاث كلفًا كان يشغل بها الفراغ الطويل الذى نظم فيه اللزوميات إذ امتد الى نحو خمسين عاما . ومن هذه الكلف الدائمةُ ومنها العارضةُ أما الدائمةُ فاستخدامه للفظ الغريب وللجناس وقد التمس فيه ضروبا من التعقيد ، كما مرَّ بنا فى غير هذا الموضع ، إذ يجانس تارة بين القافية وكلمة فى البيت وتارة ثانية بينها وبين أول كلمة فيه وقد يضيف إليها حرفا أو أكثر من الكلمة التالية ليستتم نسق الجناس . وبجانب هاتين الكلفتين الدائمتين فى اللزوميات نجد كلفا عارضة من تصنعه الواسع لألفاظ الثقافات المختلفة ، بحيث يُعَدُّ أول من وسَّع استعارة الشعراء لاصطلاحات العلوم والفنون فى أشعارهم .

ومع كل هذه الكلف والصعوبات التى ضيَّق بها الممرات إلى قوافى الديوان استطاع أن ينظم مجلدين ضخمين من الشعر ، ضمنهما فلسفته أو تفكيره الفلسفى المتشائم وهو تفكير شُغِل فيه بإنسان عصره والإنسان عامة وبالقضية التى طالما شغلت كبار المفكرين قضية الشر الذى يُصَب على الإنسان والحياة الإنسانية صَبًّا دون أن يعرف أسبابه ودون أن يستطيع له دفعا أو ردًّا . ويتسع به

التفكير فى شرور الحياة الإنسانية وآلامها ويستولى عليه تشاؤم لا أول له ولا آخر ، كما يستولى عليه يأس يثقل عليه ثقلا طويلا ويملأ نفسه شقاء وعناء . وإذا كانت الحياة على هذا النحو من الشر ففيم إذن تلقى الأبناء لها من آبائهم وفيم الزواج وهى شر متصل ، شر يؤذن دائما بالكوارث والخطوب وتلاحق الفواجع والنكبات ، ولا منقذ ولا مخلص :

وهل يأبقُ الإنسانُ من مُلْك رَبِّهِ ويخرجُ من أرضٍ له وسماءِ

إنه أسير شرور الحياة وهو لا يستطيع منها فكاكا ولا خلاصا ، وحرىٌّ به أن لا يتخذ ولدا حتى لا يَرْمى به فى أتون هذه الشرور المهلكة . ولا تشغل أبا العلاء فى لزومياته الشرور الكبرى التى تقع دائما على عاتق الإنسان بل تشغله أيضا الشرور الصغرى التى تحيط بإنسان عصره ، وأى شرور ؟ شرور الحكم الفاسد لمصر والشام : حكم الفاطميين الذين أحاطهم دعاتهم بهالة قدسية ، حتى زعموا أن قدرة الله انتقلت إليهم ، كبرت كلمة تخرج من أفواههم ، ولجوا فى نعتهم بصفات الله حتى آمنت طائفة فى زمن أبى العلاء بتجسد الألوهية فى الحاكم بأمر الله الخليفة الفاطمى .

وهذا البهتان فى العقيدة كان يروِّج له دعاتهم وخطباؤهم فى المساجد ، وفى رأينا أنهم المقصودون بحملة أبى العلاء على علماء الدين فى أيامه بمثل قوله :

نادتْ على الدين فى الآفاق طائفةٌ ياقومُ من يشترى دينًا بدينارِ
جَنَوْا كبائرَ آثامٍ وقد زعموا أنَّ الصغائر تجْنى الخُلْدَ فى النار

وهو يتهمهم بأنهم باعوا باتباعهم المذهب الفاطمى دينهم بثمن بخس دراهم معدودة . وكما حمل على علماء الدين المروِّجين للعقيدة الفاطمية حمل على الصوفية لقولهم بالحلول ، وسخِر كثيرا من ذكرهم وتواجدهم فيه ، وسماه رقصا ومن قوله فيهم :

تزيَّوْا بالتصوف عن خداعٍ فهل رُزْتِ الرجالَ أو اعتميتِ[1]
وقاموا فى تواجدهم فداروا كأنهمُ ثمالٌ من كُمَيْتِ[2]

وهاجم الحكّام عامة الذين يرهقون الشعب بضرائب فادحة ، دون أن يؤدوا بها أى نفع له أو أى مصلحة ، وفى ذلك يقول :

---

(١) راز : اختبر ، اعتمى : اختار (٢) الكميت : الخمر ، ثمال : سكارى .

وأرى ملوكًا لاتحوطُ رعيَّةً فعلامَ تُؤخَذُ جِزْيَةٌ ومكوسُ

ويقول فيهم :

ظلموا الرعيَّةَ واستجازوا كَيْدَها فعَدَوْا مصالحهَا وهمْ أُجَرَاؤُها

فهم أجراء عند الشعب يأخذون رواتبهم من كدِّه ويعتصرونها من عرقه ، ومع ذلك يظلمونه ويبغون عليه ويكيدون له ويأتمرون به . ويتسع بحملته ، فيشمل بها الناس من حوله فلا أخ كما مر بنا ولا صديق ، وقد شاع الطمع والحقد والمكر والخديعة والخلق الزريّ المشين . ولم ينس المرأة فى إعلان هذا السخط ، فقد وصفها بأنها لاتنصف فى الود ولاتفى للعهد ، ولم ينصح بتعلمها ، فحسبها فى رأيه – الغزل والنسيج والرَّدْن أو الحياكة :

علِّموهنَّ النَّسْجَ والغزل والرَّدْ نَ وخَلّوا كتابةً وقراءه

وإنما دفعه إلى ذلك –فى رأينا – فساد المجتمع فى بعض جوانبه . وقد دفعه شعوره بالرحمة على الفقراء لزمنه والرأفة بهم أن دعا إلى المساواة بين الناس فى السرَّاء والضرَّاء ، يقول :

كيف لايَشْرَك المُضِيقين فى النعـ ـمة قومٌ عليهمُ النَّعْماءُ

وكل هذه جوانب تمس إنسان عصره وماكان يريد له من حياة كريمة ، وليس هذا هو الشطر الأكبر فى اللزوميات ، فقد أودعها كما مرَّ بنا آنفا كل ما شعر به من آلام الإنسان وأصابه وأوجاعه فى دنياه إزاء مايُصَبُّ عليه من شرورها وهمومها وأفاعيها التى تلدغه صباح مساء .

ويُشيع أبو العلاء فى أشعاره حيرة تتراءى ظلالها فى اللزوميات مما جعل بعض القدماء والمعاصرين يقولون إنه كان يشك فى كل شىء ويتخذ الشك عقيدة له – كما اتخذه السوفسطائيون – ويسلطه على ماحوله حتى على الديانات ، واستدلوا على ذلك بمثل قوله :

هفَتِ الحنيفةُ والنصارى مااهتدتْ ويهودُ حارتْ والمجوسُ مُضَلَّلَهْ

اثنانِ أهلُ الأرض ذو عقلٍ بلا دينٍ وآخرُ دَيِّنٌ لاعَقْلَ لَهْ

والبيتان فى هجاء أصحاب هذه الديانات لزمنه لا الديانات نفسها ، إذ توزعوا أيامه فرقا كثيرة ، وكل فرقة تكفِّر أختها فى داخل الدين الواحد ، وكان المذهب الإسماعيلى الفاطمى قائما فى مصر ويدعو له الحكام وعلماء الدين فى الشام . وطبيعى أن يعجب ممن يدعو لهذا المذهب المسرف

فى الغلو غلوًّا شديدًا ، بل المسرف فى الانحراف عن الإسلام انحرافا مفرطا . وقد استعرضنا فى مقالنا عن التفكير الفلسفى فى شعر أبى العلاء بكتابنا « فصول فى الشعر ونقده » الأشعار التى قالوا إنه هاجم بها الديانات ووصموه من أجلها بالإلحاد وأثبتنا أن بينها منحولا كثيرا انتحله عليه خصومه . ويبدو أن أيادى شريرة امتدت إلى اللزوميات قديما وأدخلت عليها فسادا غير قليل ، يدل على ذلك دلالة قاطعة أننا نقرأ فيها :

قد ترامتْ إلى الفساد البَرَايا واستوتْ فى الضلالةِ الأديانُ

والبيت على هذا النحو يلصق تهمة الالحاد بأبى العلاء ، إذ ينسب الضلالة إلى جميع الأديان ، غير أننا إذا رجعنا إلى كتاب شرح المختار من لزوميات أبى العلاء لابن السيد البطليوسى المتوفى سنة ٥٢١ بعد أبى العلاء بسبعين عاما وجدناه ينشده على هذا النمط .

قد ترامتْ إلى الفساد البَرَايا ونهتْنا – لو نَنْتهى – الأديانُ

ورواية البطليوسى للبيت أوثق من رواية اللزوميات المطبوعة لأنها أقدم من مخطوطاتها التى اعتمدت عليها وأيضا من النسخ الخطية المحفوظة فى دار الكتب المصرية ، مما يدل بوضوح على أن تحريفات [١] مقصودة لبعض ذوى الأهواء الملحدين أدخلت على اللزميات من قديم . ومن المؤكد أنه أضيفت إليه بعض أشعار الزنادقة [٢] مثل ابن الراوندى.وقرأ بعض المعاصرين عنده أبياتا ظنوا منها أنه يؤمن بقدم المادة والزمان والكواكب وخلودها مخالفا بذلك رأى المتكلمين المسلمين فى حدوثها جميعا وأنها ليست قديمة فلا قديم سوى الله ، وهى فى واقع الأمر أبيات شُبِّهت عليهم من مثل قوله :

أرى زَمَنًا تقادم غَيْرَ فانٍ فسبحانَ المهيمنِ ذى الكمالِ

وقوله :

ياشُهْبُ إنك فى السماء قديمةٌ وأشرتِ للحكماء كلَّ مُشارِ

---

(١) أشار د . حامد عبد المجيد محقق شرح البطليوسى فى مقدمته إلى أن المختارفيه من اللزوميات يصحح بعض ماحُرِّف من شعر أبى العلاء ووُضع عليه واستشهد على ذلك بالبيت المذكور .

(٢) انظر «أبو العلاء المعرى» للدكتورة عائشة عبد الرحمن ص ٢٣٤ وراجع معاهد التنصيص (طبعة بولاق) ص ٧١ وقارن بإنباه الرواة للقفطى ١/٧٥ .

وهو فى البيت الأول جعل الله مسيطرا على الزمان مشيرًا بذلك إلى أنه محدث من صنعه ، وكل ماهناك أنه قال إن الزمان تقادم أى تعمق فى القدم ، وجعل الشهب فى البيت الثانى قديمة وهو لايقصد بالقدم فى البيتين ما يناقض الحدوث إنما يقصد ماينافض الحداثة بشهادة قوله :

وليس اعتقادى خلودَ النجومِ ولا مـذهبى قِدَمَ العـالمِ

فهو لا يقول بخلود الأفلاك والكواكب والمادة ولابقدمها كما كان يقول فلاسفة اليونان . وإنما دخل الخطأ على بعض الباحثين من فهمهم القدم فى مثل البيتين السالفين – كما قلنا – بأنه يعنى نقيض الحدوث وهو إنما يعنى نقيض الحداثة ، وقد بسطنا ذلك فى مقالنا عن أبى العلاء بكتابنا المذكور آنفا ، وأوضحنا أنه فى أشعاره مؤمن إيمانا عميقا بالديانات السماوية والدين الحنيف ورسالته السامية ، كما أوضحنا أن هذا الايمان أصل أساسى من أصول تفكيره الفلسفى العلائى ، وأنشدنا له طائفة من الأشعار التى تصور بوضوح إيمانه بالتكاليف الشرعية وبالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وكل مايتصل به من بعث ونشور من مثل قوله :

أقيم خَمْسِى وصومَ الدهر آلَفُهُ وأُدْمن الذكرَ أبكارًا بآصالِ

فهو صائم الدهر ، فَرَض على نفسه الصوم حين بلغ الثلاثين من عمره كما مر بنا ، وهو دائما يتجه إلى ربه مصليا الصلوات الخمس دون أى انقطاع واصلا صلاته بالصيام والدعاء والذكر والتبتل والاستغفار . ويعترف مرارا بالبعث والحساب وأن ملكين يكتبان عن يمينه وشماله حسناته وسيئاته ، يقول :

قد راعنى للحساب ذكرٌ وغـرَّنى أنـه بَـعـيـدُ
وعن يمينى وعن ، شمالى بصـحـبتى حافظٌ قَعِيدُ

وهو يستلهم فى البيتين قوله تعالى : (إذ يتلقَّى المتلقِّيان عن اليمين وعن الشمال قعيد ما يلفظ من قول إلا لديه رَقيبٌ عتيد) . ويعترف بحساب القبر وسؤال الملكين منكر ونكير فيه للناس ، يقول مخاطبًا الليالى :

خَلِّصينى من ضَنْكِ ما أنا فيهِ واطْرَحِينى لمُنْكَرٍ ونَكيرِ

ويشعر فى عمق بأنه مقصِّر مهما قدم لربه من عبادة ، ويأمل دائما فى عفوه ومغفرته يوم النشور ، يقول ضارعًا :

ومـغـفـرةُ اللهِ مـرجـوَّةٌ إذا أصبحتْ أعظمى فى الرِّمَمْ
ويـالـيـتنى هـامـدٌ لا أقومُ إذا نهضوا يَنْفُضون اللِّمَمْ
ونادَى المنادى على غَفْلةٍ فلم يَبْق فى أذُنٍ من صَمَمْ
وجاءتْ صحائفُ قد ضُمِّنَتْ كبَائرَ آثامِهم واللِّمَمْ (١)
وليتَ العقوبةَ تَحْرِيقةٌ فصاروا رمادا بها أو حُمَمْ (٢)

فهو آمل فى غفران الله . ومع حياته الزاهدة الناسكة يخاف لقاء ربه حتى ليتمنى أن لايبعث يوم القيامة (يوم يُنادِ المُنادِ من مكان قريب) كما جاء فى سورة قَ ، فيهبُّ الناس من رقادهم . ويقول أبو العلاء إنهم يسمعون النداء أو الصيحة بآذانهم ، ويستلهم مثل قوله تعالى : (وكلَّ إنسانٍ ألزمناه طائرَه فى عُنقه ونخرج له يوم القيامة كتابا يلقاه منشورا) . ومايلبث أن يقول ليت العقاب يوم القيامة كان تحريقا يصبح العصاة به رمادًا أو حمما فيستريحون ، ولكنه عذاب خالد ، وقد تكرر ذلك فى القرآن كثيرا مثل : (أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون) .

ولعل فى ذلك مايسقط كل ما قاله عنه بروكلمان فى ترجمته له من أنه كان لايعترف برسالة الإسلام وأيضا ماقاله بعض المعاصرين عنه من أنه كان منكرا للنبوات جاحدًا بالرسالة المحمدية ، وكيف يقال عنه إنه كان يجحدها ، وله قصيدة رائعة فى مديح الرسول صلى الله عليه وسلم ختمها بقوله بعد إشادة رائعة به وبرسالته النبوية :

فصلَّى عليه اللهُ ماذرَّ شارقٌ ومافَتَّ مسكًا ذِكْرُه فى المحافلِ

واقترن ذلك عنده – كما مر بنا – بالزهد والتقشف وهو فيهما يصدر عن الإسلام وروحه ، وحقا كان متشائما تشاؤما عميقا يملأ حنايا نفسه ، ولكن كان لايزال يومض له بريق الأمل فى رحمة ربه وعفوه ، يقول :

وما أنا يائسٌ من عَفْوِ ربِّى على ماكان من عَمْدٍ وسَهْوِ

وذهب بعض المعاصرين إلى أنه اتخذ العقل إمامًا له ، لايثق ولايستسلم ولا يلقى مقاليده إلا إليه ، لمثل قوله :

كذَب الظنُّ لاإمامَ سوى العَقْـ ـلِ مشيرًا فى صُبْحِهِ والمساءِ

(١) اللمم : الذنوب الصغيرة
(٢) الحمم : ما أحرق من خشب وغيره

وظنوا أن فى ذلك مايتصل من بعض الوجوه لإنكاره – فى رأيهم للنبوات ، وفاتهم أنه متابع فى تمجيده للعقل واعتزازه به للمعتزلة وقد مرت بنا فى كتاب العصر العباسى الأول أبيات بشر بن المعتمر المعتزلى الرائعة فى تمجيد العقل ، ومازال المعتزلة يشيدون به حتى نفذ الجبّائى وابنه أبو هاشم إلى إثبات شريعة عقلية بجانب شريعة الوحى السماوى وهى لا تخالفها بل تشهد لها وتسندها . وأبو العلاء يتابع الجبائى وابنه ، وكان يخالفهما الأشعرى ، ولذلك حمل عليه أبو العلاء فى رسالة الغفران . وكان – مثل المعتزلة – يفسح للظن ، إذ الظن أساس المعرفة وأساس مايصل إليه الإنسان من اليقين وفى ذلك يقول :

أما اليقينُ فلا يقينَ وإنما أقصى اجتهادى أن أظنَّ وأحْدِسا

فبلغ علمه الوصول إلى الظن ، وهو بذلك يتفق مع المعتزلة القائلين بأن كثيرا من التكاليف العقلية والشرعية مرجعه فى الاجتهاد إلى الظن .

ويذهب بعض دارسى أبى العلاء إلى أنه كان يؤمن بالجبر مكرِّرا أن الإنسان يدخل الدنيا كارها ويخرج منها كارها ، يقول :

خرجتُ إلى ذى الدار كَرْهًا ورحلتى إلى غَيْرِها بالرَّغْم واللّهُ شاهدُ

وأبو العلاء إنما كان يؤمن بالجبر فى حياته وموته ووجوده فكلّ ذلك يحدث بإرادة الله ولا دخل لإرادة الإنسان فيه ، إذ لا نخرج إلى الدنيا اختيارا ولانرحل عنها اختيارا ، وهو مالاينكره عليه أحد من القائلين بحرية الإرادة للإنسان إذ يريد بها المعتزلة – وهو معتزلى مثلهم – إرادة الأعمال والأفعال ، ويقدِّم على ذلك دليلا قاطعا حاسما قائلا :

إن كان مَنْ فعل الكبائر مُجْبَرًا فعقابُه ظلمٌ على مايفعلُ

وهو بذلك ينكر الجبر صراحة فيما يقترف الإنسان من كبائر ، ويرتب أبو العلاء عليه – عند القائلين به – نسبة الظلم إلى الله ، تعالى عن ذلك علوا كبيرا . وهو بذلك يصدر عن فكرة المعتزلة القائلة بوجوب العدل على الله كما يصدر عن فكرتهم أن الإنسان حر تام الحرية فى أفعاله وتصرفاته أما ما وراء ذلك من الأعمال الكونية فخاص بالله وارادته العليا ولذلك يقول :

لا تَعِشْ مُجبرًا ولاقَدَرِيًّا واجتهدْ فى توسُّطٍ بَيْنَ بَيْنا

فمذهبه فى حرية الإرادة مذهب المعتزلة ومذهبه فيما يخرج عن إرادة الإنسان من نظام الكون والوجود مذهب الجبر ولايخالفه معتزلى فى ذلك ، لأن أحدا لايستطيع أن يقول إنه يولد باختياره أو يموت باختياره ، وإنما الجدل بين الجبرية والقدرية فى إرادة الإنسان إزاء تصرفاته وهل هو حر مختار يتصرف فى أفعاله وأعماله بمشيئته أو هو كريشة فى مهب رياح القضاء والقدر تسيِّره كما تريد . واختار القدرية والمعتزلة الرأى الأول ، وهو ماإختاره أبو العلاء بين ما اختاره من الأفكار الاعتزالية وقد صرَّح مرارا بما قاله المعتزلة من تنزيه الله عن التجسيد والشبه بالمخلوقات :

ولعل ماأسلفنا من الحديث يوضح فى إجمال كيف كان أبو العلاء فيلسوفا إسلاميا بالمعنى الدقيق لهذه الكلمة ، وكيف أن فلسفته كانت تقوم على تشاؤم حاد يُرَدُّ إلى فقده لبصره صبيا وإلى ما أطبق على المجتمع لزمنه من شرور ومن حكم فاسد ، كما تُردّ إلى إحساسه العميق بآلام الإنسانية التى ملأت قلبه لوعة ، مما جعله مفكرا إنسانيا عظيما . هذا جانب فى فلسفته ، وجانب ثان استمدَّه من الدين الحنيف ومافيه من دعوة إلى الزهد والتقشف والإيمان الصادق بالله وملائكته وكتبه وتكاليفه الشرعية واليوم الآخر ومافيه من ثواب وعقاب ، مع الاعتقاد بحدوث الكون وكلِّ مافيه من مادة وزمان وأفلاك وكواكب ، فالله خالق الكون ومبدعه قال له : كن فكان . وجانب ثالث فى فلسفته استمده من الاعتزال ومافيه من تمجيد العقل وتقديسه ، ومن وجوب العدل على الله وتنزيهه عن التجسيد ، ومن الإيمان بحرية الإرادة للإنسان وأنه حر كامل الحرية فى أفعاله الشريرة الآثمة والخيِّرة الطيبة .

منصور[1] بن المسلم

هو منصور بن المسلم التميمى الحلبى المعروف بالدُّمَيْك وبابن أبى الخُرْجَين ، ولد بحلب سنة ٤٥٧ وبها نشأ وحفظ القرآن كعادة لداته واختلف إلى شوخها ، وشُغف خاصة بالعربية وأساتذتها ، فتزود منها خير زاد ، وأنس من نفسه رغبة فى تعليمها وانتقل عن حلب وسكن دمشق ، وتحول بها مؤدبا يعلم الصبيان فى مسجد الرماحين وغيره ، وظل فى هذا العمل يشغل به حياته حتى توفى سنة نيف وعشرين وخمسمائة . وكان يتقن العربية ، مما جعله يصنف كتابا فى الرد على ابن جنى فى كتابه « إعراب الحماسة » ويقول مترجموه إنه دلّ فيه على تعمق فى العربية وجودة

---

(١) انظر فى منصور بن المسلم الخريدة (قسم الشام) ٣٢٦/٣ للقفطى ١٦٩/٢ ومعجم الأدباء لياقوت ١٩٤/١٩ وإنباه الرواة

غَوّص . ويقول ياقوت كان له ديوان شعر وقفت عليه بخطه الرائق فوجدته مشحونا بالفوائد النحوية ، وقد شرح ألفاظه اللغوية واعتنى بإعرابه فدلَّ على تبحره فى علم العربية » . وروى العماد الأصبهانى فى الخريدة طائفة من شعره ، بينها غزل كثير يدل على رهافة حسه ودقة شعوره من مثل قوله :

أأحبابنا إن خَلَّف البَيْنُ بعدكم ... قلوبًا ففيها للتفرُّقِ نيرانُ
رحلتم على أن القلوبَ ديارُكم ... وأنكمُ فيها على النَّأْيِ سُكَّانُ

ونمضى معه فى هذا الغزل الملتاع وإذا هو يذكر غربته فى دمشق ، وينتقل من الغزل إلى سرد بعض خبرات له فى الحياة ، مما تعمق نفسَه فى غربته الطويلة عن ملاعب صباه وشبابه وعن مجالس إخوانه وخلاَّنه ، يقول :

ومابختيارِ المرء تَشْعَبُ نِيَّةٌ ... فَتَبْرَحُ أوطارٌ وتَنْزح أوطانُ (١)
عسى موردٌ من ماء جَوْشَنَ نَاقعٌ ... فإنى إلى تلك الموارد ظمآنُ
وماكلُّ إنسان ينال مُرَادَه ... ويُسعدُهُ فيما يحاول إمكانُ
وعيشُ الفتى طعمان حُلْوٌ وعَلْقَمٌ ... كما حالُه قِسْمان : رزقٌ وحِرْمانُ

وهو يألم لغربته ونزوحه عن وطنه ، ويتمنى جَرْعة من ماء الآبار فى جبل جوشن المشرف على حلب ينقع بها لهيب ظمئه إلى موطنه ودياره . ويسوق ذلك فى عبارات عامة تحيل البيتين الأول والثانى حكمتين بديعتين ، وكأنه يريد أن يعزى نفسه فينظم الحكمتين التاليتين ، فليس كل إنسان تتحقق مناه ويعيش سعيدا ، بل كان إنسان يذوق الحلو والمر فى حياته كما يذوق الرضا والحرمان . وينستهل قصيدة أخرى بالغزل أيضا ومايلبث أن يفضى إلى الحكم قائلا :

رأيتُ الفتى يأتيه ما لا يناله ... بِسَعْيٍ ولو أَنْضَى الرِّكائب والرَّكْبا (٢)
ومَنْ رام إدراك المُنَى بفضيلةٍ ... فقد رام أمرًا ليس يدركه صعبا
ويذهب بالودِّ المِراءُ ويَمْتَرى ... حَفائظَ لاتبقى على صاحب صَحْبا (٣)
توقَّ قليلَ الشرِّ خوفَ كثيرِهِ ... ولاتحقرنَّ النَّزْرَ رُبَّتما أرْبَى
فإن صغيرَ الشىء يكبرُ أمرهُ ... وكم لفظةٍ جَرَّتْ إلى أهلها حَرْبَا

(١) تشعب : تبعد
(٢) أنضى : أتعب . الركائب : الابل
(٣) يمترى : يستثير : حفائظ جمع حفيظة وهى الغضب والحمية .

وهو يتكلم فى أول الأبيات عن الحظ ومايغدقه على الإنسان ، دون سعى ، من منى لو أضنى فيها الركائب والركب مانالها أبدا ، ومهما تذرع لها من فضيلة وخصال طيبة مادنت قطوفها منه بحال ، وينصح الأصدقاء أن لاينشب بينهم مراء ولاجدال مقيت لأنه يثير حفائظهم ومكامن الغيظ منهم ويقطع مابينهم من صلات . ويوصى الإنسان أن يتجنَّب قليل الشر حتى لايقع فى وهاده الكثيرة السيئة ، وأن لايظنه – مهما صغر وتضاءل – شيئا لايؤبه به ، فقد ينموكما تنمو النار من بعض الشرر ، وكم من شر قليل حقير نما واستفحل واستعصى علاجه ، وكم من لفظة حمقاء أو قدت نار حرب مستطيرة . وينثر فى قصيدة ثالثة طائفة من الحكم كقوله :

وقد يُحْبِبُ الإنسانُ مافيه نَقصُهُ ... ويُبْغض مايَنْمِى به ويزيدُ
نريد من الأيام تَصْفو من الأذى ... وتَصْفو ولايَقْضى بذاك وجودُ [1]
وكيف نروم العيش خلوًا من القَذى ... وللماء من بعد الصَّفاء رُكود
إذا كان يُعْطَى المرءُ مايستحقُّه ... تساوى شقيٌّ فى القَضَا وسعيد
ومن جَرَّب الدنيا على سوء فِعْلها ... يعيبُ ذميمَ العيش وهْو حميد

وقد ألهمه البيت الأول قوله تعالى : (وعسى أن تكرهوا شيئا وهو خيرٌ لكم وعسى أن تحبوا شيئا وهو شرٌّ لكم) ويقول إننا نريد من الأيام صفاء من الشوائب وأن تكون ضافية سابغة رغدة ولاتقضى بذلك سنة الوجود ، حتى فى الطبيعة ، فالماء يركد بعد صفاء وحركة دائبة . ولو أن كل شخص نال ماتمنى لخالف ذلك سنة الحياة وأن الناس منهم شقى وسعيد ، وجديربمن خَبر الدنيا أن يرضى بميسور عيشه وأن يصبح فى رأيه حميدا لاكريها مذموما . ومن طريف شعره .

الناسُ كالأرض ومنها هُمُ ... من خَشِنِ اللَّمْسِ ومن لَيِّنِ
مَرْوٌ توقَّى الرِّجْلُ منه الأذى ... وإثمِدٌ يُجْعل فى العين [2]

وهو تقسيم بديع للناس فهم كأمهم الأرض معادن مختلفة ، منهم الصَّلد الذى لايأتى بخير بل قد يؤذى ، ومنهم الكحل النافع الذى يبرئ العين ويزيدها حسنا وبهاءً وجمالاً . ولمنصور وراء ذلك أشعار يدعو فيها إلى الزهد فى الدنيا والتقوى والعمل الصالح .

---

(١) تصفو : تصبح رغدة هانئة

(٢) المرو : الحجر الصلد . الإثمد : الكحل

حسين[١] الجزرى

هوحسين بن أحمد الجزرى الحلبى ، ولد بحلب وبها نشأ لزمن العثمانيين فحفظ القرآن الكريم ثم اختلف إلى حلقات الشيوخ والأدباء وتفتحت موهبته الشعرية مبكرة ، وقصد به الرؤساء والحكام فى دمشق والعراق ودخل القسطنطينية واصطفاه بنو سيفا أمراء طرابلس لأنفسهم ، فنظم فيهم كثيرا من مدائحه ، وفيه يقول ابن معصوم : « أحد صاغة القريض . . العالم بشِعار الأشعار والمقتنى لأبكار الأفكار . . راقت بدائع آدابه ورقّت ، وملكت روائعه حرَّ الكلام واسترقّت » ويقول الشهاب الخفاجى : « أديب له أوصاف حُسْنى ، ومناقب هن الوشى بهجة وحسنا » توفى سنة ١٠٣٤ للهجرة . وله ديوان شعر نشر فى بيروت أولا ثم نشره الطباخ مع ديوانى مصطفى البابى والفتح بن النحاس فى مجموعته : العقود الدرية . وأشعاره موزعة بين المديح والغزل والفخر والشكوى ، وكان يشغف بالحكمة ينثرها فى الشعر قائلا :

الشعرُ ما شاقتْك منهُ حكمةٌ لامايشوِّقك الكثيبَ الأوْعَسا[٢]

فليس الشعر فى رأيه مايصور نزعة الحب الإنسانية وإنما الشعر مايفيد تجربة وخبرة وبصرًا بالحياة . وهو لذلك لايعد الشعر المشوق لديار الحبيبة ومعاهدها من كثبان وَعْساء وغير وعساء شعرا رفيع المنزلة فأرفع منه مايزيدك إدراكا بالحياة من حولك ، ويعرِّفك كنهها وحقيقتها ، يقول فى تضاعيف غزل له :

إن المحبَّةَ محنةٌ لامنحةٌ ومن الغرام بَرَى المحبَّ المغرما
وإذا مُنِعْتَ الماء أول مرَّةٍ ووردْتَهُ أخرى تذكَّرتَ الظَّما
فى كل يومٍ روعةٌ أو لوعةٌ والفذّ تُقْعده الحوادث توأما
ولقد ملئتُ تجارُبا وتجاربًا لن تلقنى إلا إناءً مُفْعَما

وهى أفكار يعطيها صفة التعميم مما يجعلها حكما وأمثالا ، فالحب محنة لامنحة يضنى صاحبه ، ومَنْ تصدّه صاحبته أول مرة كمن يُصَدّ عن الماء وهو شديد الظمأ إذ لايزال يذكر ذلك حتى لو

---

(١) انظر فى ابن الجزرى وشعره سلافة العصر ص ٣٩٣ وريحانة الألبا ١١٣/١ وخلاصة الأثر ٨١/٢ وانظر ديوانه فى مجموعة العقود الدرية

(٢) الكثيب : تل الرمل . الأوعس : الذى تغيب فيه الأرجل للينه

أتيح له الورود ، فظمؤه ولهفته القديمان لايبرحان ذاكرته ، وهل فى الحب إلا صَدٌّ وامتناع وعذاب ، والمحب يصلى الروعة بعد الروعة واللوعة بعد اللوعة ، ويقول إنه مُفْعم بالتجارب كما يُفْعَمُ الإناء بالماء ، وينشد :

أرى اليأسَ عِزًّا والرَّجا ذلَّةَ الفتى ... وطولَ المنى عجزا وحبَّ الغنى فَقْرا
فلا تَضْجَرَنْ من حالةٍ مستحيلةٍ ... كما نِلْتَها عُسْرًا ستتركها يُسْرا
وإن الفتى كالغُصْن مادام نابتا ... فآونةً يُكْسَى وآونةً يَعْرَى

وهو يرى اليأس من الناس وتحقيق الآمال لإحدى الراحتين فحسب ، بل عزًّا مابعده عز ، كما يرى الرجاء وخاصة فى الناس ذلا مابعده ذل ، واتساعَ الأمانى عجزا لايشبهه عجز ، والتطلعَ إلى الغنى فقرًا لا يماثله فقر . فخير للانسان أن يقنع وأن يرضى من دنياه بالكفاف . ويوصيه أن لا يضجر من شدة تنزل به لانها لابد أن تستحيل وتتحول ، فكل عسر معه يسر ، ومأأشبه الإنسان بغصن شجرة يَعْرَى من الأوراق ويُكسى بها كل عام . ويقول :

إن خَصَّنى بالبؤس دهرى دائما ... دون الوَرَى فأنا بذلك أفضلُ
هذى عقاقيرُ العِطارةِ كلُّها ... لم يحترق منهن إلا المَنْدَلُ

فهو يتقبل البؤس راضيا ويتعلل لبؤسه بأنه أشبه مايكون بالمندل أو العود الطيب الرائحة فإنه يحرق وحده دون ماعند العطار من صنوف عطارة كثيرة . ويتردد فى أشعاره ذكر الحرمان وأن الكريم لاتضره قلة المال بينما اللئيم لايُجْديه ولاينفعه الثراء ، ويحاول أن يجد له ولأمثاله من الأدباء والفضلاء تعلُّلات للتضييق على نفر منهم فى الرزق بمثل قوله :

لاتحسب الأرزاق تُقْسمُ باطلا ... كلا لقد ساوى المهيمنُ بينَها
فإذا رُزقتَ الجهلَ أدركتَ المُنَى ... وإذا حُرِمتَ الجَدَّ أُعْطيتَ النُّهَى

وكأن أهل الأرض فى رأيه اثنان:جاهل ثرى له كل مايأمل ويتمنى وكأن الدنيا طوع أمره ، وعاقل (أديب أو عالم) فقير حُرِم الجَدَّ أو الحظ وحرم معه إكسير الحياة من المال والثراء والنعيم . ويقول :

غَيْرُ بِدْعٍ إذا ظُلمتَ بدهرٍ ... رُزِق الغَمْرُ فيه حَظًّا عظيما
فالهواءُ الصحيح يُدْعَى عليلاً ... واللَّديغُ المصَابُ يُدعَى سَلِيما

وهو يواسى من يحسُّون بأنهم مظلومون فى دنياهم لم ينالوا حظهم الطبيعى من الرزق والعيش الكريم ، بينما المغمورون يعيشون فى بحبوحة من الثراء والنعيم . ويقول إن النسيم المنعش الصحيح يدعى عليلا واللديغ يدعى سليما من تسمية الأضداد ، ولعل فى ذلك بعض المواساة للمظلومين المحرومين . ويقول :

رُوَيْدَك إن بعد الضِّيق مخرجْ وصَبْرك عنده أبهى وأبهجْ
وكم من كُرْبةٍ عَظُمت وجَلَّتْ وعند حلولها الرحمنُ فَرَّجْ

وهو يدعو إلى الصبر عند الشدة والضيق إذ لابد من رباطة الجأش دون أى تبرم ودون أى خور وضعف ودون أى يأس ، مع الاعتصام بالله والأمل الدائم فى رحمته ، وأنه لابد كاشف الكرب والأهوال مهما اشتدت وإن فرجه لقريب ، وإنه لدائما مع الصابرين الذين لايأسون أبدا من عونه . ولابن الجزرى وراء هذه الحكم ومايماثلها فى أشعاره – كما قدمنا – مدائح كثيرة ، وله فيها أبيات بديعة من مثل قوله :

يُلبِّيك من قبل السؤالِ نَوالُه ويأتيك دون الإنتظار نُضارُه

وله أبيات مختلفة فى الشكوى من الناس والأصدقاء ، وفى غزله أبيات كثيرة جيدة ، وقد كان شاعرا محسنا مجوِّدًا .

٦

شعراء التشيع

مرَّ بنا فى حديثنا عن التشيع أنه عُرف فى سَلَمْية بالشام مع حركة عبد الله بن ميمون القدَّاح حوالى منتصف القرن الثالث الهجرى الداعى لمذهب الإسماعيلية المعروف ، وهذا إنما يصدق على تلك الحركة الشيعية . ويبدو أن أفرادًا من الشام كانوا يتشيعون قبل هذا التاريخ ، لا التشيع الغالى المفرط ولكن التشيع المعتدل المقتصد ، ويسلك فيهم بعض الباحثين أبا تمام لمثل قوله عن قصيدة له مخاطبا المأمون [١] :

ووسيلتى منها إليك طريفةٌ شامٍ يدين بحبِّ آلِ محمدِ

(١) الديوان (طبع دار المعارف) ٢/٥٥

وقد ذهبنا فى كتابنا العصر العباسى الأول إلى أن أبا تمام لم يكن يصدر فى مثل ذلك للمأمون عن تشيع إنما كان يريد أن يتقرب للخليفة بذكره لآل البيت . ومعروف أن المأمون كتب إلى الآفاق بتفضيل علىّ على أبى بكر وعمر ، مما جعل الشاعر يشيد بعلى ومواقفه فى عهد الرسالة . ويلقانا بعده ديك الجن الحمصى المتوفى سنة ٢٣٥ للهجرة وتشيعه أوضح من تشيع أبى تمام إذ نجد عنده أشعارا فى أهل البيت ومراثى تندب الحسين وتبكى مصرعه من مثل قوله فى افتتاح إحدى مراثيه [١] :

ياعيْنُ لا للغَضَا ولا الكُثُبِ ... بُكا الرَّزايا سوى بُكا الطَّرَبِ [٢]
ياعَيْنُ فى كَرْبلا مقابرُ قد ... تركْنَ قلبى مقابرَ الكُرَبِ
من البَهاليلِ آلِ فاطمةٍ ... أهلِ المعالى والسادة النُّجُبِ
كم شَرِقتْ منهم السيوف وكم ... رُوِّيتِ الأرضُ من دمٍ سَرِبِ [٣]

ويقول أبو الفرج عن هذه المرثية إنها مشهورة عند الخاص والعام ويناح بها ، كما يقول إنه كان يتشيع تشيعا حسنا [٤] ، فتشيعه كان تشيعًا معتدلا .

ولم تعرف الشام التشيع المفرط الغالى إلا منذ القدّاح ودعوته الإسماعيلية التى اتخذ لها سَلَمْيَة بالقرب من حمص وحماة مركزا ، وأخذ القرامطةُ يشيعون هذه الدعوة بين بدو الشام ، غير أن دمشق ظلت بعيدة عن التشيع على الأقل حتى أوائل القرن الرابع إذ نجد النسائى صاحب كتاب السنن يلم بها سنة ٣٠٣ وكان يتشيع ، فسألوه عن معاوية وما رُوى من فضائله فأبى أن يفضله ، فمازالوا يدفعونه من المسجد ، ويقال : داسوه بالأقدام . وخرج من دمشق خائفا يترقب إلى الرملة فمات بها . ويبدو أن الدعوة الشيعية — لقيت لها آذانًا صاغية بحلب منذ مطالع القرن الرابع ، ويلقانا هناك الصنوبرى المتوفى سنة ٣٣٤ وكان يتشيع — فيما يبدو — تشيعا معتدلا . ونراه يذكر — مايؤمن به الشيعة من وصية الرسول عليه السلام لعلى بالإمامة بعده ، وله مراث فى الحسين تبكيه بكاء حارا من مثل قوله [٥] :

---

(١) الديوان (فى طبعاته المختلفة) وأدب الطف أو شعراء الحسين لجواد شبر ٢٨٤/١

(٢) شجر الغضا . من أشجار البادية . يقصد بذكره وذكر الكثبان شعر النسيب

(٣) شرقت : غصت . سرب : سائل .

(٤) أغانى (طبع دار الكتب) ٥١/١٤

(٥) أعيان الشيعة ٣٥٦/٩ وانظر أدب الطف أو شعراء الحسين ١٩/٢

يومَ الحسين هَـرَقْتَ دَمْـ ـعَ الأرض بل دمعَ السماء
مَنْ ذا لمعـقور الجوا دِ مُمالِ أعواد الخِباء
مَنْ للطريح الشِّلْو عُرْ يانا مخلًّى بالعَراء
من للمحنَّط بالتُّرَا ب وللمغسَّلِ بالدماء

ومن أهم شعراء الشيعة الإماميين بعده أبو فراس الحمدانى المتوفى سنة ٣٥٧ ، ومعروف أن الحمدانيين كانوا شيعة إمامية ، ويشتهر أبو فراس بقصيدة ميمية تصور عقيدته الشيعية وفيها هاجم العباسيين هجوما عنيفا ودافع عن العلويين دفاعا حارا ، وتسمى الشافية افتتحها بقوله[١] :

الدينُ مُحْتَرَمٌ والحقُّ مُهْتَضَمُ وفَيْءُ آلِ رسولِ الله مُقْتَسَمُ .

والفيءُ : غنيمة الحرب ، وهو يشير إلى فَدك وكانت فيئا لرسول الله فى غزوته لخيبر والقرى حولها . وكانت السيدة فاطمة الزهراء فكرت فى إرثها عن أبيها الرسول صلى الله عليه وسلم ، فذكّرها أبو بكر الصديق بقوله : « نحن معاشرَ الأنبياء لانورث ماتركناه صدقة » فاستجابت تَوًّا الرأيه وكان ينبغى أن يستجيب له أيضا أبو فراس . والقصيدة فى واحد وستين بيتا . ويعلن فى ديوانه مرارا أنه شيعى إمامى ، ويذكر أئمتهم الاثنى عشر فى مثل قوله [٢] :

شافِعى أحمدُ النَّبِيُّ ومولا يَ عليٌّ والبنتُ والسِّبطانِ
وعليٌّ وباقرُ العلم والصا دِقُ ثم الأمينُ ذو التِّبيانِ
وعلىٌّ والمتَّقى ابنُ علىٌّ وعلىٌّ والعسكرىُّ الدانى
والإمامُ المهدىُّ فى يوم لاينْـ ـفَعُ إلا غُفْرانُ ذى الغُفْرانِ

والأئمة الاثنا عشر فى الأبيات مرتبون ، وهم على بن أبى طالب وابناه سبطا الرسول ، الحسن والحسين وعلى زين العابدين بن الحسين وابنه محمد الباقر وابن الباقر جعفر الصادق وابنه الأمين موسى الكاظم ونجل الكاظم على الرضا وابنه محمد الملقب بالمتقى والجواد ثم ابنه على الهادى ونجله حسن العسكرى ثم ابنه محمد المهدى ويسميه القائم فى مقطوعة ثانية ذكر فيها الأئمة الاثنى عشر حتى انتهى إلى العسكرى بن الهادى قائلا[٣] :

---

(١) ديوان أبى فراس الحمدانى (نشر وتحقيق د . سامى الدهان) ٣٤٨/٣

(٢) الديوان ٣٩٧/٣

(٣) راجع ٤٢٩/٣ وما بعدها .

وابنهُ العسكريّ والقائمُ المظ ـهرُ حقّيّ محمدُ بن عليٌّ

ويعتقد الإمامية وخاصة الغلاة أن محمدا المهدى لم يمت وأنه غاب وسيعود ويسمونه قائم الزمان . وسنعرض هذه الفكرة عرضا أكثر تفصيلا فى حديثنا عن بهاء الدين العاملى . ويلقانا فى القرن الخامس الهجرى ابن سنان الخفاجي المتوفى سنة ٤٦٦ وهو شيعى إمامى ، ومن آثار تشيعه فى شعره قوله[١] :

وقالوا قد تغيَّرتِ الليالى وضُيِّعَتِ المنازلُ والحقوقُ
وأقسمُ ما استجدَّ الدهرُ خُلْقًا ولاعدوانُه إلا عَتيقُ
أليس يُرَدُّ عن فدكٍ عليٌّ ويملك أكثر الدنيا عَتيق

وهو يأسى لعلى وزوجته فاطمة الزهراء أنها رُدَّتْ عن ميراث فدك وقد كانت فكرت كما ذكرنا ذلك آنفا فى أن ترثها ، وذكَّرها أبو بكر بحديث أبيها ﷺ واستجابتْ له راضية . وكُبُرت كلمةً تخرج من فم ابن سنان أن يقول عن الصدِّيق الزاهد الذ أنفق أمواله فى دعوة الإسلام : إنه ملك أكثر الدنيا ، وهو لم يملك شيئا ، إن يقول إلا بهتانا وزورا .

وكان يعاصره كشاجم وكان أصغر منه سنا ، وكان يتشيع لمذهب الإمامية ، وسنخصُّه بترجمة عما قليل . وربما كان أهم شعراء الشيعة بالشام فى القرن الخامس الهجرى ابن حَيّوس الشاعر الدمشقى ، وسنفرد له الآخر ترجمة . ويلقانا بعده عند العماد الأصبهانى فى كتابه الخريدة شعراء شاميون شيعيون متعددون عاشوا فى القرن السادس الهجرى، غير أنه لا يُعْنَى بشعرهم الشيعى إلا بعض مقطوعات قلما توضح لهم مذهبا أو نحلة، منهم ابن قُسَيْم الحموى المتوفى سنة ٥٤١ وقد أنشد له العماد فى حب آل البيت قوله[٢]:

ويَدٍ بآل محمَّدٍ عَلِقَتْ منّى فلستُ بغيرهم أرْضَى
جعل الإلٰهُ علىٌّ حُبَّهمُ وعلى جميع عبادِه فَرْضَا
فأشارَ ذلك من زنادقةٍ حَسَدًا فسمَّوا حبَّهم رَفْضا
وعجبتُ هل يرجو الشفاعةَ مَنْ يَنْوِى لآلِ محمدٍ بُغْضا

(١) ديوان ابن سنان (طبع المطبعة الأنسية ببيروت) ص ٧٨
(٢) الخريدة (قسم الشام) ١/٤٥٣

وهو يعلن حبه لآل البيت حبا لا يماثله حب ، وهو حب يراه فرضا مكتوبا على كل مسلم مخلص لدينه . ويبدو أنه كان يغلو فى هذا الحب غلو الرافضة ، إذ يسمى أعداءهم زنادقة ، ويعجب أن يفكر فى شفاعتهم يوم القيامة مبغض لهم تأكل نار بغضهم قلبه . وكان يعاصره ابن منير المتوفى سنة ٥٤٨ ويقول عنه العماد : كان غاليًا متشيعا[١] ولم يرو شيئًا من شعره الشيعى الغالى . وكان طلائع بن رُزِّيك وزير الخليفتين الفاطميين : الفائز والعاضد شيعيا إماميا ، وكان من مقربيه ثقة الملك الحسن من بنى أبى جرادة الحلبيين المتوفى سنة ٥٥٥ ، وله فيه مدائح بها إشارات لبعض عقائد الشيعة[٢] ، ويبدو أن أسرته كانت تعتنق مذهب الشيعة الإمامية مثلها فى ذلك مثل أهل حلب موطنها . ومن شعراء الشام الشيعة فى الخريدة عرقلة الدمشقى حسان بن نُمَير المتوفى سنة ٥٦٧ وينشد العماد مقطوعة طويلة يذكر فيها تشيعه قائلا[٣] :

أنا من شيعة الإمام حُسَيْنٍ لستُ من سُنَّةِ الإمام يزيدِ

وهو يريد يزيد بن معاوية الذى قتل الحسين أيام خلافته ، وسماه الإمام تهكما وسخرية . ونظل فى زمن الأيوبيين والمماليك نستمع إلى أشعار تبكى الحسين أو تمدح آل البيت على نحو مانجد عند فتيان الشاغورى الدمشقى المتوفى سنة ٦١٥ للهجرة ، ويلقانا فى مطالع ديوانه باكيا الحسين ذارفًا عليه الدمع مدرارًا منشدا[٤] :

لِمَ لا أسُحُّ بيوم عاشوراء من مقلتىَّ دَمًا يمازج ماء
يومًا بهِ قُتِلَ الحسينُ بكَرْبَلا قَتْلا حَوَى كَرْبًا به وبلاء

ويوم عاشوراء هو اليوم العاشر من شهر المحرم ، وفيه استشهد الحسين على نحو ماهو معروف . ولفتيان قصيدة طويلة فى حب آل البيت يقول إنه نظمها مؤملا عفو الله ورضاه ، وفيها يشيد بالرسول ورسالته المحمدية الكبرى ، ويسترسل فى التنويه بعلى بن أبى طالب وانتصاراته المجيدة على أعداء الإسلام وينوه بعلمه وزهده وتقشفه ، ثم يفيض فى الحديث عن مصرع الحسين المفجع بمثل قوله[٥] :

أَلْهَفِى لِلْحُسَيْنِ غداةَ أُضْحَى هناك « بِكَرْبلا » شِلُّوا قَتِيلا

---

(١) الخريدة ١/٧٦
(٢) الخريدة ٢/١٩٩
(٣) الخريدة ١/٢٠١
(٤) ديوان فتيان الشاغورى (طبع مجمع اللغة العربية بدمشق) ص٦
(٥) الديوان ص ٥٨٠ والشلو : العضو من الإنسان والجمع أشلاء ، كناية عن الموت

يمزّق جسْمَهُ دَوْسُ المَذاكى وقد أعلتْ وَلاياهُ العَويلا[١]
شكَا ظمأً فما عطفوا عليهِ ولا أَلْوَوْا ولاأَرْوَوْا غَليلا
رسولُ اللهِ سمَّاه «حُسَيْنًا» وقَبَّل ثَغْرَهُ زمنًا طويلا

ويقسم فتيان مرارا وتكرارا بعلى والحسين وأصحاب العَباء أو الكساء إشارة إلى حديث ترويه الشيعة عن أم سلمة زوج رسول الله صلى الله عليه وسلم قالت : « دخل على وفاطمة ومعهما الحسن والحسين فوضعهما الرسول فى حجره فقبّلهما واعتنق عليا بإحدى يديه وفاطمة بالأخرى ، وجعل عليهم جميعا كساء أسود وقال : اللهم إليك لا إلى النار » . ولم يكن فتيان غاليًا فى تشيعه بل كان معتدلا ، يشهد لذلك قوله فى على والحسين وآلهما[٢] :

لم أَهْوَهُمْ أبدا بِبُغْضى غيرَهم كلاًّ وَمنْ فَرَضَ الصلاةَ ووقَّتا

فهو يقسم بربه فاض الصلاة أنه لم يحب آل البيت مبغضا لأبى بكر وعمر مثل غلاة الشيعة ، بل هو يحب الجميع وإن كان حبه لهم أزيد وأكثر ، كما تشهد بذلك قصيدته السالفة .

ونلتقى فى زمن المماليك بالوداعى المتوفى سنة ٧١٦ ويقول صاحب الفوات : كان شيعيا ، ومما يدل على ذلك قوله[٣] :

سمعتُ بأن الكحلَ للعين قوةٌ فكحَّلتُ فى عاشورَ مُقْلَةَ ناظرى
لتقوى على سحِّ الدموعِ على الذى أذاقوه دونَ الماء حرَّ البواتِرِ

فهو قد تكحل فى يوم عاشوراء يوم ذكرى مصرع الحسين ليسح الدموع ويذرفها على الحسين الذى قتلوه دون جرعة ماء يحتسيها بالسيوف القواطع ، وكان بعض معاصريه يتهمه بالرفض والغلو فى التشيع فكان ينكر ذلك منحيا على من يتهمه بالسبِّ واللعن ، وفى ذلك يقول[٤] :

قُلْ للذى بالرفض أتـ ـهمنى أضلَّ الله قَصْدَهْ
أنـا رافضىٌّ ألـعَن الـ ـشَّيْخَيْن أبَّاهُ وجَدَّه[٥]

وواضح أنه يقول إنه رافضى تهكما على خصومه . ونظل نلتقى بشعر شيعى على هذه الشاكلة

---

(١) المذاكى : الخيل ، ولاياه : نساء أسرته .
(٢) الديوان ص ٦٨
(٣) فوات الوفيات لابن شاكر ٢/١٧٦
(٤) الفوات ٢/١٧٥
(٥) أبَّاهُ مشددة الباء لصحة الوزن

لافى أيام المماليك فحسب ، بل أيضا فى أيام العثمانيين ، وممن يُظَنُّ تشيعه حينئذ درويش[١] الطالوى المتوفى سنة ١٠١٤ وحسين[٢] بن عبد الصمد العاملى وهو أبو بهاء الدين العاملى أكبر شعراء الإمامية حينئذ ، وسنترجم له عما قليل .

كُشاجِم[٣]

هو أبو الفتح محمود بن محمد بن الحسين بن السندى بن شاهك اشتهر بلقبه كشاجم ، وضبطه صاحب القاموس بضم الكاف ، وفى تاج العروس شرح القاموس وشرح درة الغواص للشهاب الخفاجى أنه بفتحها ، وقيل إن هذا اللقب مركب من أوائل كلمات تدل على صناعاته ، فالكاف من كاتب والشين من شاعر والألف من أديب والجيم من جميل والميم من منجم أو من مغن ، وفى ذيل زهر الآداب : « أنه كان مغنيا وله فى الغناء كتاب مليح » .

وكان جده السِّنْدى من حرس الرشيد ويقول ابن خلكان فى ترجمته لموسى الكاظم الإمام عند الشيعة الإمامية : « وكان الموكَّل به فى مدة حبسه السندى بن شاهك » وربما تلقَّن عنه حينئذ عقيدة الإمامية ، وبقيت العقيدة منذ هذا التاريخ فى بيته . وأصبح السندى بعد وفاة الرشيد من كبار حاشية الأمين ، ويقال إنه ولاه الشام ، وربما توفى بها ، وبقيت أسرته بعده فيها إذ يُسْلَك حفيده كُشاجم فى شعراء الشام ، وكان يسكن فى شبيبته بلدة الرَّمْلة بفلسطين . ونظن ظنا أنه وُلد لأبيه حوالى سنة ٢٩٠ للهجرة . ويبارح الرملة والشام جميعا فى سن مبكرة إلى الموصل حيث التحق بخدمة أبى الهيجاء عبد الله بن حمدان والد سيف الدولة ، وكان قد ولى الموصل مرارا بين عامى ٢٩٣ و ٣١٧ وبها انعقدت بين الشاعر وبين الشعراء هناك صلات مودة وخاصة بينه وبين الخالديين . وينزل عند سيف الدولة الحمدانى أمير حلب ، ويقال إنه كان يُشرف على إعداد طعامه أو على مكتبته . ويبدو أنه لم يمكث عنده طويلا . ونزل مصر وأقام بها فترة ، وأرسل حينئذ إلى جعفر بن على أمير الزاب قصيدة فى مديحه أثابه عليها بألف دينار كما يقول ابن شرف

(١) ريحانة الألبا ٦٣/١ وما بعدها

(٢) أعيان الشيعة ٢٢٦/٢٦ وروضات الجنات ٢٥/٢

(٣) انظر فى كشاجم وشعره شذرات الذهب لابن العماد ٣٧/٣ وحسن المحاضرة للسيوطى ٥٦٠/١ والمتنخل للثعالبى ص ٣٥٢ وأعلام الكلام لابن شرف القيروانى وذيل زهر الآداب ص ١٠٧ وذكر له الشريشى فى شرحه لمقامات الحريرى طائفة كبيرة من شعره ، وديوانه مطبوع ببيروت ، وراجع فى السندى جده ترجمة موسى الكاظم فى ابن خلكان والحيوان للجاحظ ٣٩٣/٥ والتنبيه والإشراف للمسعودى (طبعة الصاوى) ص ٣٠٢ وطبعة أوربا ص ٣٤٩

القيروانى ، وترك مصر إلى الشام ثم عاد إليها وهو ينشد .

قد كان شوق إلى مصرٍ يؤرِّقنى فالآن عدتُ وعادتْ مِصْرُ لى دارا

وتُرْوَى روايات مختلفة عن تاريخ وفاته ، فقيل توفى سنة ٣٥٠ وقيل بل سنة ٣٦٠ ولعل التاريخ الأخير هو الصحيح .

وهو يتناول فى شعره الأغراض المختلفة المعروفة من مديح ورثاء وشكوى وهجاء وخمريات ووصف للطبيعة والأطعمة وأدوات الحضارة . وله أشعار مختلفة فى الصيد والطرد وله كتاب فيها سماه المصايد والمطارد ، وأيضا له كتاب فى أدب النديم وهما منشوران . وكان شيعيا إماميا إما – كما قلنا – مثل أهل بيته وإما استقلالا منه ودراسة للنحلة دفعته إلى اعتناقها ، ويشهد لذلك مارواه ابن شهر آشوب ، إن صحَّ مارواه – من قوله :

نبيِّى شفيعى والبَتُولُ وحَيْدرٌ وسِبْطاهُ والسجَّاد والباقرُ المجدِ
بجعْفَ بموسى بالرِّضا بمحمدٍ بِنجْلِ الرِّضا والعسكريين والمهدِى

والبتول : السيدة فاطمة الزهراء ، وحيدر : الإمام على ، ويتوالى بعده أئمة الإمامية أو الاثنى عشرية وهم اثنا عشر إماما : على ، والحسن والحسين ابناه سبطا رسول الله ، والسجاد : على زين العابدين بن الحسين والباقر ابنه محمد ، ورخَّم جعفر فى قسَمه ، والترخيم فى غير المنادى شاذ ، وموسى هو موسى الكاظم الإمام السابع ، والرضا هو على الرضا ابنه ، ومحمد هو محمد الجواد نجل الرضا ، ويليه على الهادى فالحسن العسكرى ، وقد سماهما العسكريين والمهدى هو محمد المهدى المنتظر الذى مات صبيا حوالى سنة ٢٦٠ للهجرة . وسماهم جميعا كشاجم – كما رأينا – فى بيتيه واتخذهم شفعاء له عند ربه ، مما يقطع – إن صَحَّ أنه ناظم البيتين – بتشيعه وإماميته أو اعتناقه نحلة الإمامية .

وفى ديوان كشاجم ثلاث قصائد طويلة ، يبكى فى أولاها الحسين ومن قُتلوا معه من آله فى كربلاء قائلا فى مطالعها :

يابُؤْس للدَّهرِ حينَ آلُ رسو لِ الله تَجْتاحُهم جَوائِحهُ
أظلمَ فى كربلاء يومُهمُ ثم تَجلَّى وهم ذبائحُه
لابَرِحَ الغيثُ كلَّ شارقةٍ تَهْمِى غواديه أو روائحُهُ[1]

(١) الشارقة هنا اليوم وأصله الشمس . والغوادى والروائح : السحب الممطرة صباحا ومساء . تهمى : تصب وتسيل .

على ثَرَى حلَّه ابنُ بنت رسو لِ الله مجروحةً جَوارحُهُ.
وسيق نِسْوانه طلائحَ أحـ ـزانٍ تهادى بهم طلائحُه

والقصيدة تفيض – على هذا النحو – أسًى ولوعة لمقتل الحسين وبعض آله معه ، ويسمىٌ ذلك ذبحا ، فيبلغ كل مايريد من التأثر لسبط رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ويدعو له الغيث أن يظل يهمى كل شارقة أو كل يوم على الثرى الذى ضم هذا الجسد الطاهر الجريح . ويصور بشاعة العدوان الأثيم حين ساق مرتكبوه نساء آل البيت منهكات مُعْيِيات ، حتى لقد أصاب الإبل التى حملتهن ماأصابهن من الإعياء والإجهاد والكلال . ويمضى فى القصيدة فيتحدث عن على بن أبى طالب وشجاعته وبأسه وخدماته للإسلام ورسالته ، كما يتحدث عن علومه الزاخرة . ويستهل كشاجم القصيدة الثانية ، وهى همزية بإعلان حبه لأهل الكساء الخمسة الذين تحدثنا عنهم : الرسول والسيدة فاطمة وعلى بن أبى طالب وابناه : الحسن والحسين . ويذكر مايعتقده الشيعة من أن الرسول أوصى بالإمامة لعلى فى غديرخُمٍّ ، ويذكر أن له معجزات جمة وأنه بحر علوم سماوية ، ثم يأخذ فى بكاء الحسين وأن الأمويين ثأروا فيه لقتلاهم فى غزوة بدر يقول :

لئن وَتَر القومَ فى بَدْرهم لقد ثَأَرَ القومُ فى كَرْبَلاء
بها هُتِكتْ حُرَمُ المصطفى وحَلَّ بهنَّ عظيمُ البلاء
وساقوا رجالهمُ كالعبيدِ وحازوا نساءهمُ كالإماء
ولو كان جَدُّهمُ شاهدًا لشيَّع أَظْعانهم بالبكاء

والأبيات بالغة التأثير فى وصفها لهول يوم كربلاء وماكان فيه من هتك لحرمة نساء آل البيت ورجالهم ، أما الرجال فساقوهم سوق العبيد ، وساقوا النساء سوق الإماء ، فيا للفظاعة ، ولو شاهد الرسول هذه المأساة ماكتفى بالدموع كما يقول كشاجم ، بل لأعاد غزوة بدر ثانية ، دفاعا عن سبطه وآله .

ويُلمُّ كشاجم فى القصيدة الثالثة بالحسين وآل البيت ومأصابهم فى كربلاء إلماما سريعا ، وكأنما أراد أن يفردها لعلى سيد الأوصياء كما يقول ، الجواد البطل ، ويسترسل فى فضائله قائلا :

وكم شبهةٍ بهُداهُ جَلا وكم خُطَّةٍ بِحِجاهُ فَصَلْ
وكم أطفأ اللّهُ نارَ الضَّلالِ به وهْىَ تَرْمى الهُدَى بالشُّعَلْ

وكم ردَّ خالقُنا شَمْسَهُ عليه وقد جَنحتْ للطَّفَلْ
وكم ضربَ الناسَ بالمُرْهفاتِ على الدِّين ضَرْبَ غِرابِ الإبلْ

وحقا كان عليٌّ ملهما فى معرفة الحكم الفاصل فى أى مشكلة تعرض له أو لغيره ، حتى قال فيه عمر : قضية ولا أبا حسن لها ، وكم أعز الله به الإسلام ، وكم ضرب بالسيوف المرهفة أعداء الإسلام ضرب العرب لغرائب الإبل . أما أن الشمس كانت تُرَدّ عليه حين تجنح للغروب فتلك مبالغةٌ ، عليٌّ فى غنى عنها ، بل هى بهتان ، ومثلها بهتانا مازعمه فى القصيدة من تفضيل عليٍّ درجات فوق أبى بكر الصديق وأنه كان أجدر بالخلافة منه لأن الرسول أوصى أن يكون خليفة بعده . وتمادى فى بهتانه على الصديق ، فقال إن الرسول نحّاه عن الصلاة بالناس حين اشتد به المرض ، وقد صلى بالناس سبع عشرة صلاة ، وصلى به الرسول مؤتما ركعة ثانية من صلاة الصبح ثم صلى الركعة الباقية وقال : « لم يُقبَضْ نبىّ حتى يؤمَّه رجل من قومه » . وكلُّ ذلك متواتر معروف غير أن غلاة الشيعة ينكرونه . ولايلبث أن ينحى باللائمة ، بل أن يهجو – غير خجل ولامستح – أبا بكر وعمر ، لأنهما منعا السيدة فاطمة حقها فى ميراث الرسول ومآل إليه فى غزوة خيبر ، وهما إنما صدعا فى ذلك عملا بقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : « نحن معاشر الأنبياء لانورّث وماتركناه صدقه » ولعل فى ذلك كله مايدل على تشيع كشاجم وغلوه فى تشيعه .

ابن حَيُّوس [1]

هو محمد بن سلطان بن محمد بن حيوس الدمشقى ، كان جده حيوس على شىء غير قليل من الثراء مما جعله يشيِّد بدمشق دارًا فخمة توارثها بنوه من بعده إلى زمن الشاعر . وكانت أمه بنت قاضى غوطة دمشق ، فهو قد ورث الثراء عن آبائه ، والعلم عن جده لأمه وأخواله . ولد لأبيه بدمشق سنة ٣٩٤ وحفظ مثل لداته القرآن وأخذ يختلف إلى العلماء وفى مقدمتهم خاله ابن الجندى الغسانى ، وكانت دمشق حينئذ تابعة لمصر ، ويبدو أن أباه كان موظفا فى دواوينهم هناك إذ نجد أحد قواد الحاكم بأمر الله الفاطمى المسمى أنوشتكين الدُّزْبرىّ ينزل ضيفا على أبيه لسنة ٤٠٦ . ويعود فيما بعد حاكما لدمشق سنة ٤٢٠ حتى سنة ٤٣٣ . وكانت موهبة الشاعر تفتحت ،

---

(١) انظر فى ابن حيوس وشعره ابن خلكان ٤٣٨/٤ وزبدة الحلب (نشر د. سامى الدهان) ٤٠/٢ والوافى ١١٨/٣ وعبر الذهبى ٢٧٩/٣ وشذرات الذهب ٣٤٣/٣ ومقدمة ديوانه لخليل مردم وقد حققه ونشره فى مجلدين (طبع المجمع العلمى العربى بدمشق)

فانعقدت صلة وثيقة بينهما وأخذ كل منهما يهدى صاحبه هدايا عظيمة ، الشاعر يهديه روائع من مديحه بلغت أربعين قصيدة ، والدٌ زبرى يهديه أموالا جزيلة . ويتولى دمشق بعده ناصر الدولة الحسن بن الحسين الحمدانى حتى سنة ٤٤٠ وله فيه عشر مدائح ويخلفه على دمشق حيدرة بن الحسين بن مفلح ، ويتولى مرارا متقطعة حتى سنة ٤٥٥ وله فيه قصيدة واحدة . ويبدو أنه اتجه فى ولايته على مدينته إلى القاهرة ، فلزم الحسن بن على اليازورى وزير الخليفة الفاطمى المستنصر من سنة ٤٤٢ إلى سنة ٤٥٠ وقدم إليه إحدى عشرة قصيدة ، بعضها قدمها إليه فى القاهرة وبعضها أرسلها إليه من دمشق . وولى الوزارة بعده أبو الفرج محمد بن جعفر المغربى فمدحه بقصيدتين وعُزل سريعا فمدح الوزير بعده بمدحة واحدة .

وفى هذه السنوات التى تبلغ أكثر من ستين عددا كان ابن حيوس شاعر ولاة الدولة الفاطمية الإسماعيلية ووزرائها وكان يصدر عن عقيدتها فى مدائحهم ، وتضطرب الأمور فى القاهرة ودمشق ، ويصمت الشاعر إزاءها حتى إذا ازداد الاضطراب فى دمشق وخشى الشاعر على نفسه من استيلاء السلاجقة السنيين أعداء الفاطميين الإسماعيليين عليها رأيناه يهاجر منها لسنة ٤٦٤ إلى طرابلس وبنى عمار ولاتها ، ويتصادف لقاؤه فيها بعلى بن منقذ صاحب حصن شَيْزر فينصحه أن يصحبه إلى محمود بن نصر المرداسى صاحب حلب فإنه سيجد عنده الظل الظليل ، وكان يغلب على الناس هناك مذهب الشيعة الإمامية . فلم يجد الشاعر بأسًا من تلبيته النصيحة ، وقدم على الأمير محمود بن نصر ، فمدحه بقصيدة بديعة وأعطاه ألف دينار ، ومازال الشاعر يوالى مدائحه فيه إلى وفاته سنة ٤٦٧ حتى بلغت عشرا وهو يوالى عطاياه عليه . وخلفه ابنه نصر ، فمضى يجزل للشاعر فى العطاء حتى بلغت مدائحه فيه مدة إمارته ، وكانت عاما ، عشر قصائد ، وولى بعده أخوه سابق وظل يوالى عطاءه له حتى قضى مسلم بن قريش العقيلى لسنة ٤٧٣ على آل مرداس مستوليا منهم على حلب ، ومدحه ابن حَيّوس بقصيدة طنانة يقول له فيها :

أنت الذى نفَق الثَّناءُ بِسُوقهِ وحَرَى النَّدَى بعروقهِ قبل الدَّمِ

وأجازه بألفى دينار ، وفى نفس السنة توفى ابن حيوس عن نحو ثمانين عاما . ولاريب فى أن ابن حيوس انصرف عن عقيدته الإسماعيلية حين ولَّى وجهه نحو بنى مرداس ، ونراه يجاهر بذلك قائلا :

وكلُّ نَوْءٍ بمصرٍ جادَنى زمنًا فِداءُ نَوْءٍ سقانى الرِّىَّ فى حَلَبِ

وشاء له القدر أن يهدر مسئوليته لآل مرداس فى الأيام الأخيرة من حياته بعد أن أثروه – كما يقول ابن خلكان – وأسبغوا عليه نعما ضخمة ، مما جعله يبنى دارا فخمة له بحلب ، وكان قد كتب على بابها :

دارٌ بَنَيْناها وعِشْنا بها ... فى نعمةٍ من آل مِرْداسِ
قُلْ لبنى الدنيا ألا هكذا ... فليصنَعِ الناسُ معَ الناس

ولم ينفعهم ماصنعوه فبمجرد أن أزال مسلم بن قريش العُقَيْلى دولتهم استأذنه فى إنشاد مديحه . ومن المؤكد أنه ظل إلى سن الستين يستلهم العقيدة الإسماعيلية الفاطمية فى مدائحه لولاة الفاطميين بدمشق ووزرائهم بالقاهرة إما عن اقتناع بها وإما رياء لذوى السلطان وقد تحدثنا عن هذه النحلة فى كتابينا « العصر العباسى الثانى » و « عصر الدول والامارات » وأوضحنا مبادئها وكيف أن داعيتها القداح اتخذ سَلَمْيَة بالقرب من حَماة مركزًا لها ، وكانوا يزعمون أن تاريخ العالم ينقسم إلى حلقات وكل حلقة يمثلها سبعة من الأئمة وسابعهم الإمام الناطق الذى ينسخ بشريعته الشرائع . وقالوا إن جسم الإمام ليس جسما ماديا ، بل هو شبح يكن فيه اللاهوت النورانى ويبالغ بعض شعرائهم فيزعم أن الإمام صفو شفاف لاتشوبه الأكدار ، فهو نورانى خالص . وأضفوا أسماء الله الحسنى فى القرآن الكريم على أئمتهم وجعلوهم علة الوجود ومدبِّرى الكون إلى غير ذلك من مبادئ تصور غلوهم المفرط . ومن هذه المبادئ قَبَس ابن حَيُّوس فى مدحه للدِّزْبرى سنة ٤٢٧ قوله فى مديح المستنصر حين ولى الخلافة بعد أبيه الظاهر لدين الله :

أَمَّتْ خلافتَه ريحُ النَّدَى يَسَرًا ... وظل نَشْرُ الدُّنا من نَشْرها عَطِرا (١)
وخُصَّ بالشَّرف المحْضِ الذى ارتفعتْ ... له النواظرُ والنورِ الذى بَهَرا
هُمُ الأُلى أخذ اللّهُ العهودَ لهم ... والناسُ ذَرٌّ على من بَرَّ أو فجرَا (٢)
لأجلهم خلقَ الدُّنْيا وأسْكَنَها ... وذَنْبُ آدمَ لولاهمْ لما غُفِرَا
وإن آلاءَهُ مالا يحيط بها ... وَصْفٌ على أنها تَسْتنطق الحجَرا
مناقبٌ عددَ الأنفاسِ ماتركتْ ... لفاخرٍ من جميع الناس مفتخَرا

---

(١) أمت : قصدت ، يسرا : سهلا ، النشر : الريح الطيبة والطيب ، الدنا : جمع دنيا .

(٢) الذر : مايرى فى شعاع الشمس الداخلى من النافذة .

وواضح أنه فى البيت الثانى يشير إلى اللاهوت النورى المتنقل فى الأئمة – بزعم الإسماعيليين – حتى انتهى إلى المستنصر. ويزعم أن الله اتخذ على الناس عهدا بطاعتهم قبل خلق العالم وأنهم علة الوجود، ولولاهم لم يغفر ذنب أبيهم آدم. ويقول إن آلاء المستنصر ونعمه لا يحيط بها وصف وكأنها آلاء الله العىّ. ويكثر ابن حَيّوس من ذكر إمام العصر وغياث المسلمين وتنقل النور فى الأئمة وأن طاعتهم فرض، يقول للدزيرى فى إحدى قصائده :

ياسَيْفَ مَنْ عِصْيانُه وولاؤهُ جَعلا شقيًّا فى الوَرَى وسعيدا

فالسعيد من أطاع الإمام الفاطمى والشقى حطبُ النار مَنْ عصاه. ونراه فى مديح الوزير اليازورى يحرضه مرارا على العراق وقد جعل موضوعا لقصيدة دالية له تدبير اليازورى المعروف لفتنة البساسيرى فى سنتى ٤٤٧ و٤٤٨ واستيلائه على بغداد والموصل ودعوته فيها للخليفة الفاطمى، وفيها يقول للخليفة العباسى القائم بأمر الله :

عجبتُ لمدَّعى الآفاق مُلْكًا وغـايـتُـه بـبـغـدادَ الرُّكُودُ
ومِنْ مُسْتَخْلَفٍ بالهون راضٍ يُذادُ عن الحِياض ولايذود

وهو يريد أن ملكه لايتجاوز بغداد، وأنه يرضى بالخزى والذل والصغار إذ ليس فى يده من الحكم والسلطان شىء مع الملك السلجوقى طُغْرُلْبك. ومايزال يدور فى الفلك الإسماعيلى الفاطمى حتى سن الستين إذ ينزل حلب عند محمود بن نصر المرداسى وكان قطع الخطبة للخليفة الفاطمى المستنصر وخطب للقائم بأمر الله فأنشده مدحة يقول فيها :

ولك الأدلَّةُ أُوضِحَتْ حتى رأى إثباتَ فَضْلك مَنْ رأى التعطيلا
غُرُّوا بأنْ شرَّقتَ عنهم مذهبًا فى الرَّأْى ماعرفوا له تأويلا

وهو فى البيتين يعرِّض بالفاطميين وأنهم يدعون إلى تعطيل إرادة الله وإنفاذ إرادة الأئمة، كما يدعون دعوة واسعة إلى التأويل فى القرآن الكريم حسب عقيدتهم وأهوائهم، وكأنه يريد أن يعلن تبرُّؤه منهم وأنهم ضالون مضلون. وأشعار ابن حَيُّوس تمتاز بالقوة والصلابة والجزالة والنصاعة، ويستخدم فيها أحيانا المحسنات البديعية دون إسراف أو إفراط.

بهاء الدين[١] العاملى

هو محمد بن حسين بن عبد الصمد العاملى ، كان أبوه من فقهاء المذهب الإمامى الشيعى يتنقل فى بلدان الشام ولبنان ، ثم رحل إلى إيران فتنقل بين بلدانها وأوغل فيها حتى هراة فى أفغانستان . واستقر به المقام فى « البحرين » حيث توفى بها سنة ٩٨٤ وقد ولد له ابنه بهاء الدين فى بعلبك سنة ٩٥٣ وصحبه معه إلى إيران ، وحُبِّبت إليه الرحلة مثل أبيه ، فجاب البلاد الإيرانية والعربية . وزار مصر وبها ألف كتابه « الكشكول » المنشور فى مجلدين كبيرين ، وهو موسوعة أدبية عرض فيها بهاء الدين معارفه أو قل بعض معارفه فى الحديث النبوى والدراسات الدينية واللغوية والصوفية والاعتزالية والفلسفية والهندسية والفلكية سوى مافيه من أشعار كثيرة تدل على ذوق جيد . وعلى غراره كتابه « المخلاة » . وبعد ثلاثين سنة من رحلاته فى البلاد الايرانية والعربية ألقى عصا تسياره فى أصفهان ، وقرَّبه سلطانها شاه عباس وأكثر من إغداقه عليه ، وولاه مشيخة العلماء الإمامية فى أصفهان حتى وفاته سنة ١٠٣١ للهجرة . وفى أثناء إقامته بمصر انعقدت صداقة بينه وبين محمد بن الحسن البكرى وبالمثل انعقدت صداقة بينه وبين الحسن البوريني فى دمشق . وقد هيأته إمامية أبيه ونشأته فى إيران مركز المذهب الإمامى إلى أن يصبح فقيها إماميا كبيرا ، وإلى أن يؤلف كتبًا فى الحجاج للمذهب بالعربية والفارسية ، وله مؤلفات كثيرة فى التفسير وفى الأصول وفى الفقه وفى العربية وفى الفلك ، وكان شاعرا مبدعا .

ويقول الشهاب الخفاجى : « شعره باللسانين العربى والفارسى مهذب محرر ، وبالفارسية أحسن وأكثر » وأنشد له الخفاجى فى الريحانة وابن معصوم فى سلافة العصر والمحبى فى نفحة الريحانة وخلاصة الأثر أشعارا كثيرة تتناول أغراضا مختلفة : غزلا وخمرا ومديحا ورثاء ، وأنشد له مترجموه رباعيات متعددة . وهو فى شعره ليس إماميا فحسب ، بل هو إمامى غال . وكان الامامية يعتقدون أن إمامهم الثانى عشر محمدًا المهدى المنتظر لم يمت حوالى سنة ٢٦٨ وإنما اختفى وسيعود ، ويسمونه إمام[٢] الوقت وقائم الزمان ، ويؤمنون أن بعض الصفوة من علمائهم على

---

(١) انظر فى بهاء الدين العاملى وشعره سلافة العصر لابن معصوم ص ٢٨٩ وريحانة لألبا للخفاجى ٢٠٧/١ ونفحة الريحانة ٢٩١/٢ وكتابه الكشكول (طبعة الحلبى) ١٧٦/١ ، ١٩٧ وفى مواضع متفرقة وخلاصة الأثر ٤٤٠/٣ وروضات الجنات ٥٣٢ والذريعة ٢٩/٢ ، ٢٤٠/٦

(٢) راجع فى إمام الوقت عند الإمامية الاثنى عشرية العقيدة والشريعة فى الإسلام لجولد تسيهر (طبع القاهرة) ص ١٩٧ ، ٣٤٤ وما بعدها

اتصال شخصي به وأنهم يستوضحونه بعض المسائل الشرعية ، ويفصح لهم عن رغباته وأوامره ، بل إنهم يجعلونه خليفة الله المصرف لشئون الكون والعباد ، ولبهاء الدين قصيدة عن هذا الإمام صاحب الزمان أو قائمه يغلو فيها هذا الغلو المفرط أنشدها فى كتابه الكشكول وفيها يقول :

خليفةُ ربِّ العالمين وظلُّهُ ... على ساكن الغبراء من كل ديّارِ[1]
هو العروةُ الوُثْقَى الذى مَنْ بذيلهِ ... تمسَّك لا يخشى عظائمَ أوزارِ
علومُ الورَى فى جَنْب أبحر علمهِ ... كغَرْفةِ كفٍّ أو كغمسة مِنْقار
به العالمُ السفلىّ يسمو ويعتلى ... على العالم العلوىِّ من غير إنكارِ
همامٌ لو السبعُ الطِّباقُ تطابقتْ ... على نَقْض مايَقْضيه من حُكْمه الجارى
لنُكِّسَ من أبراجها كلُّ شامخٍ ... وسُكِّن من أفلاكها كلُّ دوَّار
أياحُجَّةَ اللهِ الذى ليس جاريًا ... بغير الذى يرضاه سابقُ أقدارِ
ويامَنْ مقاليدُ الزمانِ بكفِّهِ ... وناهيك من مجدٍ به خَصَّه البارى

وبهاء الدين يجعل محمدًا المهدى الغائب فى رأى الإمامية خليفة الله فى تنفيذ أحكامه على الناس وظله الذى يستظل به كل مظلوم ، ويجعله العروة الوثقى أخذا من الآية الكريمة : (ومَنْ يُسْلِم وَجْهَه إلى الله وهو محسنٌ فقد استمسك بالعروة الوثقى) ويجعل من يتمسك به تغفر له ذنوبه ، ويبالغ فى سعة علمه اللدنّى بالقياس إلى علم الناس الذى لايُعَدّ شيئا مذكورا بجانب بحار علومه . ويزعم أن العالم السفلى وهو الأرض شَرُف به وفضُل على العالم السماوى ، ويزعم أن السموات السبع لو اتفقت على نقض مايبرمه لانقلبت أبراجها وخرجت من قواعدها وسكن منها كل دائر متحرك من أبراجها . ويصفه بأنه حجة الله على الخلق وأن الأقدار الإلهية طوع أمره لا تعصاه أبداو أن مفاتيح الزمان وخزائنه بيده . والقصيدة تمتلئ بهذا الغلو المفرط الذى يجعل هذا الإمام لايزال حيا يصرِّف أمور الكون ، ويدبر شئون العباد ، ويعذب من يشاء ويغفر لمن يشاء ، ومقاليد الدنيا بكفه ، وكل شىء يجرى فيها بإرادته ، وكأن قائم الزمان فوق جميع الأنبياء والمرسلين . وهو غلو ما يماثله غلو .

وطبيعى وقد بلغ بهاء الدين من الغلو فى عقيدته كل هذا المبلغ أن يدعو إلى سَبِّ من وقفوا –

---

(١) ديار : ساكن دار . الغبراء : الأرض .

فى رأى الشيعة – ضد على وحقه فى الخلافة وفى مقدمتهم أبو بكر الصديق وعمر الفاروق على نحو مانلقاه فى مثل قوله :

يا أيها المدَّعى حبَّ الوصىِّ ولم ... يَسْمَح بسبِّ أبى بكرٍ ولاعُمَرا
كذبتَ واللهِ فى دعوى محبَّتِهِ ... تَبَّتْ يداك سَتَصْلى فى غَدٍ سَقَرَا
فإن تكن صادقا فيما نطقتَ بهِ ... فابْرأْ إلى الله ممن خان أوغدرا
وأنكرَ النصَّ فى خُمٍّ وَبَيْعتِهِ ... وقال إن رسول الله قد هجرا
أتيتَ تبغى قيامَ العذر فى فَدَكٍ ... أتحسب الأمرَ بالتمويهِ مستترا

وبهاء الدين يجعل سب أبى بكر وعمر فريضة مَنْ لم يؤدها صَلِىَ نار الجحيم وعذابها الأليم ، ويدعو صاحبه أن يبرأ من الشيخين الجليلين – كبرت كلمات خبيثة تخرج من فمه – ويعلل لما قاله بأنهما أنكرا نصَّ غدير خم ووصية الرسول صلى الله عليه وسلم فيه لعلى بالإمامة والخلافة ، وهو نص لم يثبت ، بل الثابت أن الرسول استخلف أبا بكر عنه فى الحج حتى إذا مرض استخلفه فى الصلاة كما هو معروف . وكل ذلك يؤذن بأن الرسول استخلف أبا بكر الصديق بعده واستخلف أبو بكر عمر ، وبهما انتشر الإسلام وفتح العالم القديمُ له أبوابه . ويتعلل بهاء الدين بأنهما منعا السيدة فاطمة الزهراء رضوان الله عليها من إرث فَدك فَيئ رسول الله ، وإنما منعاها بوصية الرسول – كما ذكرنا مرارا – إذ قال : « نحن معاشر الأنبياء لانورث ماتركناه صدقة » . ومامن ريب فى أن للشيخين الجليلين قدسية عظيمة فى نفوس المسلمين . ولعل فى كل ماقدمنا مايصور كيف أن بهاء الدين العاملى كان رافضيا غاليا فى الرفض ، سواء فى مهاجمته أبا بكر وعمر أو فى خلعه على الإمام القائم صفات الله وكأنه يشركه فى تدبير الكون وتسخير المقادير ، تعالى الله علوا كبيرا عن كل مالجَّ فيه من رفع إمامه الحقى عن المستوى البشرى حتى للأنبياء المصطفين الأخيار .